Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منشورات جامعة حلب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الفكر العربي الإسلامي

الدكتور
علي أحمد

Bibliotheca Alexandrina
0136896

لطلاب السنة الثالثة
قسم التاريخ

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منشورات جامعة حلب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الفكر العربي الإسلامي

181.07
ت ف ع
٤٨٧٢٤

الدكتور
علي أحمد

لطلاب السنة الثالثة
قسم التاريخ

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمـــة

موضوع تاريخ الفكر العربي الإسلامي، من الموضوعات الواسعة التشعبة النواحي والفروع، الأمر الذي ادى إلى شغل حيز هام من اهتمامات ودراسات العلماء العرب والأوروبيين منذ اواخر القرن الماضي. ومن الحق ان نعترف ان بعض العلماء الأوروبيين المنصفين، هم الذين مهدوا وعبدوا طرقه ومناهجه وتفاصيله، وإن جهودهم فيه قد تنوعت، فجاء بعضها فردياً تناول موضوعاً محدداً او ظاهرة معينة، او مرحلة زمنية طويلة او قصيرة، او علماً من اعلام الفكر، مثال ذلك البحث في مؤثرات الثقافة العربية في الكوميديا الإلهية لدانتي، او تاثير آراء ابن سينا وابن رشد في ميدان الفلسفة الغربية في اوائل عصر النهضة، او تصوير النهضة العربية الإسلامية ومنجزاتها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكان منها الجماعية، التي تعاونت فيها مجموعة من الباحثين الجادين على دراسة تراث العرب في ميادينه الكبرى، وبيان طرقه ومسالكه إلى الفكر الأوروبي العام.

وقد شهدت الخمسون سنة الماضية منذ بدء النهضة الجماعية في البلاد العربية مشاركة جادة من علماء الشرق والمغرب العربيين في هذا المجال، ظهرت بعض ثمارها في مؤتمرات علمية عربية ودولية، وفي الندوات العالمية في الثقافة العربية ـ في طائفة من الأبحاث التي كشفت عن جديد من النصوص والوثائق الهامة على صعيد الفكر والحضارة العربية، وكذلك عن نطاق التاثير والتاثر بين الفكرين العربي والغربي، كما اخرجت المطابع العربية العديد من الدراسات في هذا الموضوع، تناول بعضها منجزات الحضارة العربية ومقوماتها، وتناول بعضها الآخر آثار التراث العربي في الحضارة الأوروبية.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام، اننا لم نكن متعصبين لقوميتنا ولا لأوطاننا، ذلك لأننا نعرف مسبقاً ان التعصب بدون دليل إيجابي وعلمي يكون نوعاً من الجهل، الذي يؤدي إلى ضرر بالغ الأثر في مصالحنا الوطنية، اضف إلى ذلك اننا جميعاً ننتمي إلى امة اعطت الكثير للشعوب والأمم الأخرى بدون مقابل، وفوق كل ذلك نقول، انه من حسن الحظ انه قد انقضت تلك المرحلة او كادت، التي كانت معالجة هذا الموضوع فيها يشوبها احياناً شيء من التعامل او التعصب من جهة، والرغبة في الدفاع عن الكيان وعن التراث القومي من جهة اخرى، وحلت محلها مرحلة من العمل المتواصل في إحكام روابط التفاهم العالمي على اساس العدالة والاحترام المتبادل، وفي اتخاذ دراسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارات الإنسانية سبيلاً إلى ابراز الوحدة الإنسانية، ودافعاً إلى التعاون الحقيقي في إزالة واستئصال شافة الخصومات، وتخفيف حدة الأطماع والتوترات، والسعي إلى ترسيخ اسس السلام القائم على العدل والمساواة بين الأمم على اختلاف اجناسها والوانها وثقافاتها، ومنبهاً إلى ان الازدهار الحضاري الذي تنعم به بعض دول العالم في العصر الحديث، إنما هي حصيلة الجهود المتعاقبة للحضارات الكبرى، التي تركت طابعها على تاريخ البشرية وتقدمها، ومن حق الأمم جميعاً ان تشارك في خيراته، وتفيد من مجالات تطبيقه، وان التاريخ الحضاري لبنى الإنسان قائم على التعاون والأخذ والعطاء، فلا مكان للشعور بالاستعلاء من جانب المعير، او بالغضاضة او النقص من جانب المستعير.

بقي ان نذكّر في مسالة نراها في غاية الأهمية على هذا الصعيد، تتجسد في ان جميع المختصين بالحضارة العربية مطالبون بتطوير دراساتهم في هذا الشان، وبالتالي تكرار طباعة ما انجزوا حتى يتسنى للأجيال الجديدة، ان تقف على مدى المشاركة الفعّالة والدور الرائد الذي شغلته الأمة العربية في الماضي في بناء صروح واعمدة الحضارة الإنسانية، حيث الف علماؤها في مجال العلوم العقلية التطبيقية، كالفلك والرياضيات والهندسة وعلوم الطبيعة والطب والصيدلة والزراعة والفلسفة وما يتصل بذلك، وقد شكلت منجزاتهم العلمية المبتكرة اساساً مكيناً ومنطلقاً سريعاً على طريق تفجير الثورة العلمية في الغرب الأوروبي، هذه الثورة التي اسفرت عن اعظم الاختراعات والابتكارات التي جعلت الناس في انحاء المعمورة، يعيشون حياة تحفل بكل وسائل الراحة والبحبوحة.

وبالجملة فقد حرصنا غاية الحرص، ان يكون هذا الكتاب سهلاً وممتعاً من خلال الابتعاد عن التطويل والإسهاب، والإلتزام قدر المستطاع بالاختصار غير المخل بالهدف الرئيس، الذي يتجسد بإعطاء القارئ فكرة واضحة عن مقدار ما انجزته الأمة العربية في حقول العلوم المختلفة، وما قدمته في فترة العصور الوسطى من خدمات جليلة القدار إلى كل بني البشر دون تفريق بين شعب وآخر، في الوقت الذي كانت فيه دول الغرب الأوروبي وغيرها، تغط في نوم عميق، وحيث كانت الثقافة العربية، هي الثقافة العالمية الرائجة، التي لا تزاحمها ثقافة اخرى.

د. علي احمد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحتـــوى

- **الفصل الأول:** ٧

الفكر العربي قبل ظهور الإسلام

- **الفصل الثاني:** ١٥

الطب والصيدلة

- **الفصل الثالث:** ٣٧

العلوم الطبيعية = علم الميكانيك – علم الفيزياء

- **الفصل الرابع:** ٤٥

العلوم الرياضية = الحساب – علم الجبر – علم الهندسة – علم المثلثات – علم الفلك (الهيئة).

- **الفصل الخامس:** ٥٥

العلوم الزراعية

- **الفصل السادس:** ٦١

علم الكلام والفلسفة:

١ ـ علم الكلام = الجبرية – القدرية – المرجئة – المعتزلة.

٢ ـ الفلسفة = الفلسفة الروحية – الفلسفة العقلية – الفلسفة التوفيقية – الفلسفة العلمية العقلية – فلسفة إخوان الصفا – فلسفة ابن سينا – فلسفة ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- **الفصل السابع:** ٨١

العلوم الاجتماعية:

١ ـ التاريخ = السيرة والمغازي – كتب الطبقات – كتب فتوح البلدان – كتب التراجم – ـ كتب التاريخ العام – كتب الموضوعات والبلدان.

٢ ـ الجغرافية – تطور الجغرافية العربية – أهم الجغرافيين – أهم المؤلفات الجغرافية.

٣ ـ علم الاجتماع = زمن ظهور هذا العلم – ابن خلدون كأول عالم اجتماع في تاريخ البشرية.

- **الفصل الثامن:** ١٠٢

الفكر العربي الإسلامي في مجال العلوم الدينية:

١ ـ علم القراءات.

٢ ـ التفسير.

٣ ـ علم الحديث وأصوله.

٤ ـ علم الفقه وظهور المذاهب الفقهية.

- **الفصل التاسع:** ١١٢

علوم اللغة العربية – علم النحو وقواعد اللغة – الشكل والتنقيط – المعاجم وفقه اللغة – البلاغة – العروض – الشعر – النثر والخاطبة.

- **الفصل العاشر:** ١٢١

الزهد والتصوف = التصوف العادي + التصوف الفلسفي + الطرق الصوفية.

- **الفصل الحادي عشر:** ١٢٨

المؤثرات الحضارية العربية في الغرب الأوروبي وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى = التأثير في مجال الطب والصيدلة، والفلك، والأدب، والفلسفة، والزراعة، والصناعة وغير ذلك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول:

الفكر العربي قبل ظهور الإسلام

لم يكن العرب في الجاهلية وبخاصة في جزيرة العرب رواد علم ومعرفة، كما كان حال جيرانهم من الروم والفرس على سبيل المثال. ولكن تسرب إليهم كثير من وجوه العلم، التي كانت عند إخوانهم من البابليين والكلدانيين، ومن جيرانهم الفرس والروم، وهكذا نشأت في بيئتهم أنواع من العلم كانوا في حاجة ماسة إليها، حيث كانت تدعوهم إليها الحاجات الملحة. من ذلك علم الطب، والفلك واقتفاء الأثر وما أشبه ذلك(١).

لذلك فقد ترسخت عندهم معرفة ممتازة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم ممتاز بأنواع الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفعل العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في سبيل المعيشة لا على طريق تفهم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم.

وعرف العرب من أسماء الأعداد الآحاد والعشرات والمئات والألوف وذلك كثيرٌ من الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم، ولم يكونوا أيضاً في عزلة عن الحركات الفكرية والاجتماعية والعلمية التي كانت تسود في البلدان المحيطة بجزيرتهم. ويبدو أن الجبر الذي عرفه اليونان والهنود بعد ذلك قد وصل خبره إلى عرب الجاهلية فتعلقوا بالمعادلة البسيطة ذات المجهول الواحد(٢).

أما في الفلك فقد كان لعرب الجاهلية ملاحظات كثيرة لا تدل على أن نفراً منهم كانوا على قسط من علم الفلك النظري والعملي فحسب. جاءهم من جيرانهم في العراق على الأكثر. بل على أن جانباً من ذلك العلم كان شائعاً في الناس. يقول امرؤ القيس مؤقتاً زيارته لحبيبته بقوله في معلقته:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً عليَّ حراصاً لو يسرُّون مقتلي

١ ـ انظر صاعد الأندلسي ـ طبقات الأمم ص ٤٢ .

٢ ـ انظر عن ذلك ـ تاج العروس ج ٤ ص ١٣٨ و ج ٦ ـ ص ٣٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصّل

فامرؤ القيس يخبرنا أنه لمّا جاء لزيارة حبيبته كان عنقود الثريا يبدو في السماء بأعرض جوانبه(٣).

وكانت السماء الصافية في شبه جزيرة تساعد العرب على ملاحظة الكواكب وعلى الاستدلال بها على الاتجاه في السفر وعلى الإهتداء بها في ظلمات البر والبحر، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك مراراً بقوله تعالى: "وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر وقد فصلنا الآيات لقوم يعلمون"(٤).

كما عرف العرب منذ الجاهلية النجوم بأسمائها ومواضعها ومطالعها ومغاربها وشيئاً من خصائصها، وتمرسوا بذلك كله في حياتهم حتى دخلت أسماء النجوم في لغتهم وأمثالهم وأسمائهم. ومن أطرف الأمثال وأدلها على دقة الملاحظة قولهم: "أيها السها فتريني القمر". فالسها نجم خفي جداً يمتحن الناس به أبصارهم، ولا يراه إلا ذوو البصر الصحيح ومن الأماكن التي لا تكثر فيها رطوبة الجو. أما القمر فظاهر لكل إنسان. والمثل يضرب لمن تحاول أنت أن تدله على دقائق الأمور فلا يستطيع هو أن يرى إلا الأشياء العامة الواضحة لكل إنسان(٥).

ومما يدلنا على امتزاج الأسماء الفلكية في الحياة العربية العامة كثرة أسماء الأشخاص المأخوذة من السماء منذ الجاهلية. فقد سمى الجاهليون عب شمس (ضوء الشمس) وبدراً وقمراً وقمبراً وهلالاً والزبرقان (بكسر الزاي: القمر) وسموا عطارد وزهرة، وسموا سهيلاً والثريا وغيرها كثيراً.

وأدرك العرب أن عدداً من النجوم ثابت في السماء (كما رأوه في العين) حتى جعلوا تلك النجوم الثابتة علامات دالة على الأماكن والمساكن، وهذه الكواكب سميت ثابتة لا لأنها لا تتحرك أبداً، بل لأنها تظل دوماً على أبعاد معينة لا تتبدل(٦).

وكان العرب في الجاهلية يُولون القمر اهتماماً شديداً، لأنه كان يضيء لهم وجه الأرض في أسفارهم وأسمارهم، ولأن حركته كانت أبين الوسائل في حسبان الأشهر والسنين. ولاحظوا أن القمر يدور حول الأرض مرة كل ثمانية وعشرين يوماً أو نحو ذلك. ثم لاحظوا أن القمر يكون في كل ليلة قريباً في رأي العين من أحد النجوم الثابتة، فاتخذوا تلك النجوم علامات لمسير القمر

٣ ـ انظر كتاب الأنواء ص ٢٤ ـ ٢٥ .

٤ ـ سورة النحل الآية ١٦ .

٥ ـ انظر كتاب الأنواء ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

٦ ـ النويري ـ نهاية الأرب ج ١ ص ٦١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في فلكه حول الأرض وسموها منازل أو بروجاً.

ومن معارفهم أيضاً الأنواء، التي يقصد بها تبدل الأحوال الجوية فيما يتعلق بالحر والبرد وبالرياح والأمطار. فكان عرب الجاهلية يعتقدون أن الأنواء مرتبطة بسقوط (غروب) منزلة من منازل القمر في المغرب. لذلك فالأنواء عندهم هي من توابع علم النجوم.

عدّ عرب الجاهلية الكعبة موضعاً وسطاً، وجعلوا اليمن عن يمين مستقبل الكعبة، والشام عن شمال مستقبلها أو يساره، والشرق عندهم بطبيعة الحال هو المكان الذي تشرق منه الشمس، والغرب هو المكان الذي تغرب فيه الشمس في رأي العين(٧).

فإذا نحن جعلنا الكعبة مركز تفرع الجهات الأربع ثم استقبلنا بوجهنا مطلع الشمس، كان الشرق أمامنا بلاد فارس، والغرب وراءنا مصر، والجنوب عن يميننا بلاد اليمن، والشمال عن شمالنا أو يسارنا بلاد الشام أو سورية ومهاب الرياح موافقة للجهات الأربع، فالريح الهابة من الشمال من الشام والعراق على نجد تكون باردة يصحبها أمطار وربما ثلوج، وهي تسمى ريح الشمال أو الريح الشامية، ومكان هبوبها بالإضافة إلى ذلك نجدها بين مطلع الشمس (الشرق) أو الشمال الشرقي في عرفنا.

ومهب ريح الجنوب من الجهة الجنوبية الغربية، وهكذا تصل الريح الجنوبية إلى نجد مارة فوق الصحاري الوسطى في بلاد العرب، فتكون جافة، أما ريح الصبا فتهب على نجد من جبال إيران باردة، ولكنها تمر فوق خليج البصرة فتلطف وتصبح منعشة. ولقد أحب الجاهليون هذه الريح كثيراً. والدبور هي الريح الغربية.

ومن علوم عرب الجاهلية، الكهانة والعرافة والعيافة والقيافة.

فالكهانة استعداد في أشخاص مخصوصين لاستخراج المغيبات من الأمور الظاهرة. وكان الكاهن في الجاهلية على جانب كبير من الذكاء والإحاطة بمعارف زمنه، فاكتسب بذلك وجاهة عند قومه وأصبح موضع ثقتهم، يستشيرونه في أمورهم ويسألونه أن يخبرهم بالمستقبل أو أن يحكم بينهم في ما يختلفون فيه. وكانوا أحياناً يستطبونه فيصف لأمراضهم أدوية مزاجية أو علاجاً روحياً هو أقرب إلى السحر والشعوذة. على أن الكاهن كان يصيب أحياناً في ما يشير أو يحكم أو يصف.

٧ ـ انظر القاموس ج ٤ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ و ج٣ ص ٤٠٢ و ٢٤٨ ـ ٢٤٩ و ج١ ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقريب من الكهانة العرافة. بينما الكاهن كان يسأل عن المستقبل كان العراف يسأل عن الماضي. ثم أن العراف كان يشرك الكاهن في كل شيء آخر، وفي تطبيب الأمراض النفسية والمستعصية خاصة.

ويتصل بالكهانة والعرافة فن آخر هو العيافة، التي تعني التكهن بالطير أو بغيرها من أنواع الحيوان. إذا اتفق أن سئل عراف عن أمر إنسان فإنه يزجر (يثير - يطرد) أول طائر أو حيوان يمر به، أو يكتفي أحياناً بملاحظة طيران ذلك الطائر أو مسير ذلك الحيوان. فإذا كان ذلك الطائر مثلاً مقبلاً عن يسار العائف إلى يمينه أو من أمامه، كان ذلك فألاً حسناً للسائل، وأما إذا كان الطائر بارحاً، أي ماراً من يمينك إلى يسارك كان ذلك شؤماً على السائل(٨).

وربما شق العائف بطن الطير أو الحيوان ونظر إلى أعضائه الداخلية، كالقلب والكبد، ورأى ما فيها من العلامات والأعراض المرضية، فحال عضو الحيوان من التبدل من الصحة والمرض، كان يدل عندهم على حال السئل من البركة والشوم، ومن النجاح في السفر أو الخيبة، ومن الشفاء من المرض أو الإعضال.

وهناك القيافة التي تتبع آثار الإنسان والحيوان للإهتداء إلى الهارب من الإنسان والحيوان ولمعرفة السارق، الذي لم يخلف وراءه إلا آثار قدميه. والبراعة في القيافة تقوم على تمييز الآثار إذا كان بعضها واقعاً فوق بعض، ثم اكتشاف شخصية صاحب الأثر من آثاره، إذا كان رجلاً أو امرأة، شاباً أو شيخاً صحيحاً أو مريضاً، مطمئناً أو خائفاً يحمل شيئاً أو لا يحمل شيئاً، إلى آخر ما هنالك من وجوه الإمكان.

وهناك الفِراسة أيضاً، وهي دراسة تفاصيل الوجه للاستدلال على النسب بين الأفراد أو على أخلاق صاحب الوجه وعلى ما سيكون من أمره في المستقبل(٩).

أما بخصوص الفلسفة، فإننا نجد في الشعر الجاهلي آراء كثيرة تتصل بالفلسفة الخالصة من نظرية المعرفة، ومن السياسة في العدل والحرية والحلم والشورى والأخلاق. أما الحكم العامة التي وردت في الشعر الجاهلي فكثيرة متنوعة.

كان الحارث بن حلزة يفتخر بأنه يحدُس في كل الأمور، يتطلب المعرفة من غير طريق الحواس، وذلك واضح في قوله:

---

٨ . القاموس ج ١ ص ٢١٥ .

٩ . انظر المفضليات ص ٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فحسبت فيها الركب احدُس في كل الامور وكنت ذا حدس(١٠).

ولطرفة بن العبد آراء في الأخلاق، تقرب من أن تكون فلسفة، لأنه يرى أن الغاية من الحياة هي اللذة المادية العاجلة، ثم لا يلقى بالاً إلى موقف الناس منه في ذلك، ما دام هو وحده سيتحمل نتائج سلوكه. قال في معلقته:

فلولا ثلاث هن من لذة الفتى وجدك لم احفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كُميتٍ متى ما تُعلّ بالماء تزبد
وكرّي إذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا بهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد
كريم يروي نفسه في حياته مخافة شرب في الممات مصرد
وذرني وخلقي انني لك شاكر ولوحلّ بيتي نائباً عند ضرغد

فطرفة يرى لذى الإنسان في الخمر وإكرام الضيف واللهو مع النساء، يريد أن يتمتع بهذه في حياته، لأنه لن يكون بعد الموت شيء من ذلك.

ويحب طرفة أن يسلك هذا السبيل ولو اضطر إلى أن يعيش بعيداً عن جميع الناس. ثم هو يرى أن اللوم لا يزيد المندفع في أمر من الأمور إلا إصراراً.

وكان للجاهليين في الحرب رأي سياسي فطري. ولكنه واضح. فتتابع الغزو في البيئة الجاهلية حمل العرب على أن يعتقدوا أن الحرب هي السبيل الوحيد إلى حلّ المشاكل وحسم الخلاف، وكانوا يرون أن القبيلة العزيزة الجانب هي القبيلة التي تظلم غيرها من القبائل، تبدأها بالقتال، أي تغزو غيرها قبل أن يغزوها غيرها.

وكانت الكتابة في العصر الجاهلي معروفة، ولكن لم تكن مألوفة، أي أنه كان في الجاهلية نفر يقرأون الخط. غير أن معرفة القراءة والكتابة، لم تكن منتشرة انتشاراً ملموحاً وبخاصة في البادية.

والأمثلة على وجود الكتابة في الجاهلية كثيرة، مثل القلم: اليراعة إذا بريت أي القلم، والالوك والالوكة والمألُكة أي الرسالة، والصحيفة والقرطاس والكاغذ أي الورق. ومعظم هذه الألفاظ جاءت في الشعر الجاهلي.

وإننا نسأل بأي الأقلام كان يكتب عرب الجاهلية؟ وما شكل الخط الذي كتبوا به؟ ونجيب أنه لا سبيل اليوم إلى معرفة ذلك، غير أننا إذا درسنا تطور الخط العربي، لم نجد من المعقول أن

١٠ . المفضليات ص ٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون العرب قد أخذوا الخط من القلم الحميري (اليمني) ولا من القلم العبري لأنهما كانا يكتبان حروفاً منفصلة غير متصلة. والأصوب أن يكونوا قد أخذوا الخط عن الآراميين، الذين كانوا يكتبون الحروف متصلة، يزيد يقيناً في ذلك أن الخط الأقدم في اللغة العربية كان يدعى الكوفي.

والذي يبدو لنا أن الكتابة والخط في الجاهلية، كانا على شيء من التطور والرقي مع شيء من النقط والشكل أيضاً، على خلاف ما كان الاعتقاد السائد إلى وقت قريب(١١).

وقد عرف عرب الجاهلية الطب والمداواة معرفة جيدة، فقد كان فيهم أطباء درسوا في فارس أو في بلاد الروم، واستفادوا من خبرتهم بعقاقير بلادهم، فإن الحارث بن كَلَدَة الثقفي سافر في البلاد وتعلم الطب بناحية فارس وتمرن هناك وعرف الداء والدواء. وكذلك النضر بن الحارث بن كَلَدَة، نشأ طبيباً كأبيه، فقد سافر في البلاد واجتمع مع الأفاضل والعلماء في عدد من البلاد، وعاشر الكهنة والأحبار واشتمل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان تعلمه أبوه من الطب. وكان للجاهليين براعة في الجراحة وأمراض العين.

ولقد كان هناك نوع آخر من التطبيب بالرُقى والعزائم يقوم به الكهنة والعرافون، ولا ريب في أن هذا النوع الذي شاع في بلاد كثيرة كان شعوذة أو كالشعوذة(١٢).

على أن تاريخ المداواة في الجاهلية كان أمراً آخر. فالبادية أرض قاحلة، لذلك فقد كان عرب الجاهلية عامة وأهل البادية خاصة أكثر احتمالاً للحرمان والمجاعات وأقل تعرضاً للأمراض الحاصلة من الطعام والشراب، لأنهم كانوا يأكلون شيئاً قليلاً. على أن المتعرضين للجراح كانوا أكثر من المتعرضين للأمراض العادية، وذلك لطبيعة الحياة الجاهلية القائمة في البادية على الغزو والثأر. فاتساع البادية وتفرق المساكن واشتداد الحر في النهار إلى خمسين أو ستين درجة ثم هبوط تلك الحرارة في الليل إلى عشرين درجة أو أقل، لا تساعد على حياة الجراثيم وتكاثرها بخلاف حال المدن المكتظة بالسكان والمحجوبة عن نور الشمس، من أجل ذلك لم تكن الحاجة في البادية إلى الطب والتطبيب كالحاجة إليه في المدن(١٣).

وداوى العرب في الجاهلية بالرقى والعزائم والتمائم. ولا ريب في أن هذه تنفع في بعض

١١ - ناصر الدين الأسدي - مصادر الشعر الجاهلي طبعة مصر ١٩٥٦ ص ٥٩ وما بعدها.

١٢ - انظر ابن أبي أصيبعة. طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٦ والقاموس ج ١ ص ١٦٨ .

١٣ - انظر ابن خلدون المقدمة ص ٩١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحوال النفسية إذا كان مرض المريض وهماً أو اضطراباً، وكان هو يعتقد النفع في هذه الرقى والعزائم. أما في الأمراض والأدواء الجرثومية فليس لهذه الوسائل أثر. ويبدو أن هذه الوسائل لم تكن تجدي حتى في بعض الأحوال النفسية.

وكذلك كان الجاهليون يجرون العمليات البسيطة لقطع شيء زائد في ظاهر البدن. وكانوا لا يعرفون من وسائل التعقيم إلا حمي السكين بالنار. وكانوا يداوون بالكي بعد فشل العلاجات الأخرى، ومنه المثل القائل: آخر الدواء الكي. وكان الكي باباً من أبواب التجربة الفطرية في الجاهلية ولم يكن مضمون الأثر ولا موثوقاً في التجربة، مثال ذلك كان مسافر بن أبي عمرو بن أمية ينادم عمرو بن هند، فأصيب مسافر بالاستسقاء فأشار عليه الأطباء بالكي، فلم يزده ذلك إلا ثقلاً(١٤).

كما كان الجاهليون يعرفون عوارض للأمراض لا يبرأ صاحبها، كالصداع الدائم الذي لا يعرف سببه. وتعودوا التكحل ليدفعوا عن العين شدة الإلتهاب.

وكانوا يعرفون تضميد الجراح ومداواتها لكثرة حاجتهم إلى ذلك في حروبهم، التي كانت شبه مستمرة، كما عرفوا كثيراً من أمراض الحيوان(١٥).

وعرفوا كذلك عدة أمراض كالحمى العامة، وحمى الغب التي تصيب المريض يوماً وتتركه يوماً، وحمى الرّبع، التي تصيب المريض يوماً ثم تتركه يومين ثم تعود إليه في اليوم الرابع، وعرفوا الزحير (الزنظاريا) أو الزحار.. وعرفوا الكباد، وهو وجع الكبد، والقلاب أي داء القلب، وعرّفوا المرض بالحصى(١٦).

على أن الجاهليين كأكثر الشعوب القديمة، وكأكثر الشعوب الحالية، قد عُنُوا جداً براحة المريض وبسكوته عن الشكوى آنياً ولو أضربه ذلك ضرراً كبيراً دائماً(١٧).

وعرف العرب أن الجرب ينتقل بالعدوى من الإبل الجربى إلى الإبل الصحيحة، فكانوا يطلون أماكن الجرب في الإبل بالقطران، ثم يعزلونها عن الإبل الصحاح، بعدئذ يكوون الإبل الصحاح بالنار، كأنما كانوا يلقحونها ضد الجرب.

١٤ ـ انظر الأصفهاني ـ الأغاني ج ١٥ ص ٥٠ الكتبي ـ فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٤ .

١٥ ـ انظر عن ذلك القاموس ج ٤ ص ٩٣ ـ ٩٤ .

١٦ ـ انظر عن ذلك بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

١٧ ـ الأغاني ج ١١ ص ٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من أشد أطباء الجاهلية، الحارث بن كلدة من الطائف، وابنه النضر ابن خالة رسول الله (ص) وقد حارب المسلمين في معركة بدر، وأُسر في المعركة وأمر الرسول بضرب عنقه(١٨) وابن أبي رمثة التميمي الذي كان بارعاً بالجراحة(١٩).

واشتهر الجاهليون في فن الغناء، الذي كان عندهم في الأصل الحداء كما يزعم مؤرخو الأدب، ثم تطور بعد ذلك، وهم بذلك كجميع الشعوب الفطرية.

وكان تطور الغناء عندهم باحتكاكهم ببعض الشعوب ولا سيما الفرس، الذين استفادوا منهم أشياء كثيرة في هذا المجال وبخاصة الآلات الموسيقية، مثال ذلك آلة الطنبور (وهي كلمة فارسية معربة) التي بقيت موجودة إلى القرن الرابع الهجري(٢٠).

وكان الغناء في الجاهلية قاصراً على النساء، وعلى الجواري المملوكات منهن بخاصة، كما كان فردياً بالأكثر (مرتجلاً أو معداً). ولم يكن في الجاهلية غناء جماعي. وإذا وجد نوع من الغناء الجماعي، فقد كان في التلبية والتهليل كما في بعض المقطعات الشعرية، التي كانت تنشد للحماسة في الحرب من ذلك على سبيل المثال:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق(٢١)
ان تهزموا نعانق او تُهزموا نفارق

وستبدأ جميع هذه العلوم والفنون بالتطور في العصور اللاحقة وبخاصة خلال العصر الأموي، حيث ستبدأ شمس التطور بالظهور والنمو.

---

١٨ ـ ابن ابي اصيبعة طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٦ .

١٩ ـ طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٣ وما بعدها.

٢٠ ـ انظر الأغاني ج ١ ص ٣٦٨ ـ ٣٧٩ والقاموس ج ٤ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

٢١ ـ النمارق جمع نمرق ونمرقة اي الوسادة الصغيرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني:

الطب والصيدلة

١ ـ الطب

لم يكن في العالم المتحضر في الفترة من منتصف القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي علم طبي يعول عليه إلا ما كان منه عند العرب. ولم يشك أحد من أهل العصور الوسطى في قضية تفوق العرب في مجال الطب علماً وعملاً وتنظيماً. وقد بذل الرواد من مؤرخي العلوم جهداً بالغاً في دراسة تاريخ الطب العربي، ووصفوا كيف نشأ في بغداد، وكيف ازدهر حتى بلغ أوجه في عهد الرازي وابن سينا، وكيف انتقل إلى الأمم الأخرى. وكانت الصورة العامة التي قدمها لنا أولئك الرواد واضحة مقنعة، ولا تزال مقبولة عند أكثر المشتغلين بتاريخ العلوم، لم يغيره منها كثيراً ما كشف عن الباحثون المعاصرون، على ما تعلمناه من هذه الكشوف.

وتاريخ الطب العربي تاريخ طبيعي يشبه في جوهره تاريخ النبضات العلمية عامة. سوى أن خطواته تعاقبت سراعاً. وكان تطوره على مراحل واضحة المعالم، قام بها الأطباء العرب طبقة بعد طبقة. فكانت كل طبقة تبدأ من حيث انتهى علم من سبقوها وتزيد فيه. والتقدم العلمي في هذا التطور واضح ثابت علمياً، لا نحتاج في إثباته إلى ما روى القصاصون. فالمطلع على طب حنا بن ماسويه أو حنين بن اسحق، وطب الرازي وابن سينا لا يسعه إلا أن يعترف أن الطب العربي كانت له حياته القوية المستقلة.

وقد اعتمد العرب على الطب اليوناني، لكنهم لم يأخذوا كل ما وصلهم من الحضارة اليونانية في هذا الشأن، إنما قاموا بعملية توفيق بين خبرتهم العلمية والأسس الفكرية التي نقلوها عن اليونان. لذلك نرى العرب بعد أن استوثقوا من علمهم بالطب اليوناني، بدأوا يؤلفون الكتب على غرار المؤلفات اليونانية. وهذا ما سيظهر أمامنا بوضوح من خلال الكتابات التالية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ظهرت الحاجة إلى الطب عند العرب منذ وقت مبكر، حتى شغلت هذه الحاجة المرتبة الأولى بين اهتمامات العرب على الصعيد العلمي، فتقدم الاهتمام بالطب على الاهتمام بالهندسة والكيمياء على سبيل المثال. سواء كان ذلك من حيث اهتمام الحكام بمؤسساته وتطويرها، أو الإهتمام بأصحاب المهن الطبية، الذين يُعدون المحور الفعال لقيام مثل هذه المؤسسات.

لم يكن هذا الاهتمام مجرد صدفة عابرة، اقتصر على خليفة دون الآخر، أو أنه ظهر في فترة زمنية معينة واختفى في فترة أخرى. بل يمكن القول، أن الأمر كان أبعد من ذلك بكثير، بحيث قام على أسس ودعائم ثابتة ومؤثرة، كان لا بد لها أن تنهض وتستمر، لما لها من تأثير كبير على استمرار حياة المجتمع الإنساني بشكل عام. وتجلت هذه الدعائم والأسس بالمحافظة على الصحة العامة والحؤول دون انتشار الأمراض والأوبئة المؤدية بالنهاية إلى هلاك الإنسان. يضاف إلى ذلك كله أمر في غاية الأهمية والتقدير، كونه يأتي من واقع الدعوة العربية الإسلامية، التي تهدف أولاً إلى تحقيق الحياة السعيدة لبني الإنسان(١).

فقد حض الرسول العربي الكريم (ص) ودعا في كثير من المناسبات على الإقبال على التداوي ومعالجة الأمراض إذا أمكن، وعدم ترك الأمور تسير على طبيعتها كما كان سائداً في المجتمعات العربية قبل الإسلام وغيرها من الأمم السابقة، التي كانت تعتقد أن سبب أمراض الإنسان أرواح شريرة لا يتمكن من شفائها إلا الكهّان والمنجمين، الذين كانوا يعتقدون بوجود صلة بين الإنسان والكواكب في حياته(٢).

شكلت دعوات الرسول (ص) هذه فيما بعد وفاته، القواعد الأولى التي ارتكز عليها علم الطب عند العرب بكل تفاصيله وجزئياته، وثبت أنها كانت ذات دلالات علمية صحيحة، وتشكل في إطارها العام فلسفة وجود علم الطب الحديث، كغرض من أغراض المحافظة على صحة الإنسان وسلامة جسده وعقله، وتجنيبه ويلات الآلام والمتاعب الجسدية التي يمكن أن يعانيها المريض. لقد دعا الرسول الكريم (ص) بصراحة ووضوح إلى تقصي أسباب المرض والقضاء عليها، وذلك حينما سئل مرة: أفي الطب خير يا رسول الله؟ قال (ص): "نعم أنزل الدواء من أنزل الداء"(٣). ودعا إلى النظافة العامة وقاية من انتشار الأمراض والأوبئة، ودعا إلى الاعتدال في الأكل والشرب، لأن الكثير فيها يسبب التخمة وإرباك الجسم وتعرضه للأمراض. ودعا إلى ما

١ ـ نشأت حمارنة ـ تاريخ الطب ـ طبعة مؤسسة الأهلية الجامعية دمشق ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ ص ٨٦ و ٨٧ .

٢ ـ حكمت نجيب عبد الرحمن ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص ٣٧

٣ ـ ابن جلجل ـ طبقات الأطباء والحكماء ـ تحقيق فؤاد السيد ـ طبعة اولى القاهرة ١٩٨٠ ص ١٣٢ ابن قيم الجوزية ـ الطب النبوي ـ تحقيق شعيب ارناؤوط ١٩٥٥ ص ٥٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعرف اليوم بالحجر الصحي عند انتشار وباء من الأوبئة المعدية، وذلك خشية تفشي ذلك الوباء وانتقاله إلى أجسام الأصحاء. فكان يقول عن الطاعون: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه". ودعا إلى المعالجة النفسية بتطبيب النفوس وتقوية القلوب، ودعا إلى المعالجة بشرب العسل والحجامة(٤).

وهكذا وضع الرسول (ص) الأسس الصحيحة العامة، ودعا الناس إلى الاستعانة بالأطباء؛ الذين كان عدد منهم معاصراً له في الجزيرة العربية، وفي مقدمة هؤلاء الحارث بن كلدة الثقفي، الذي اشتهر أمره كأول طبيب عربي في الإسلام، مثال ذلك ما ينقله ابن جلجل في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء) يقول فيها على لسان سعد بن أبي وقاص: "مرضت مرضاً فعادني رسول الله فقال لي، أين الحارث بن بن كلدة فإنه رجل يتطبب"(٥).

ولتوضيح المستوى الذي كان عليه الطب في عصر الرسول والخلفاء الراشدين يجدر بنا أن نأتي على سيرة أشهر طبيب عربي عُرف في صدر الإسلام، وأهم معارفه الطبية، التي اكتسبها هذا الطبيب العربي ونادى بها، لكي نستطيع أن نتلمس أوجه الشبه والخلاف في المعارف الطبية، ومدى تأثيرها في تطوير علم الطب في العصور اللاحقة، وعلى الأخص في العصرين الأموي والعباسي.

طبيبنا العربي هذا هو الحارث بن كلدة الثقفي، الذي سافر كثيراً في طلب العلم، بالإضافة إلى ما أخذه واكتسبه من الرسول (ص) فقد زار فارس ونزل في مدرسة جنديسابور وتعلم الكثير في مجال معرفة الأمراض وطريقة مداواتها ومعالجتها، كما أنه زار اليمن أيضاً، ولعله استفاد شيئاً جديداً هناك(٦).

أما أهم المعارف الطبية، التي نادى بها الحارث بن كلدة، فهي أنه نهى عن إدخال الطعام على الطعام لئلا يصاب الإنسان بالتخمة التي تؤثر على الصحة العامة. وحض على أكل الفواكه في أوان نضوجها، وتركها إذا ولت وانقضى زمانها. وحض على الزواج من المرأة الفتية، وعدم إتيان المرأة المسنة، وأكد أن الفرق بين المرأة والرجل في السن، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار. وفي مجال التشريح فقد قسّم العين إلى ثلاثة أقسام. فنهى عن التعرض لحرارة الشمس كثيراً، لأن ضررها عندئذ يصبح أكثر من نفعها، ونهى عن تناول الدواء إلا عند الضرورة، فإنه لا يصلح شيئاً

٤ ـ انظر ابن قيم الجوزيه ـ الطب النبوي ص ٢٧٩ و ١٧ و ١٨ و ٢٨ و ٢٩ و ٥٠ نشأت حمارنة ـ المرجع السابق ص ٨٧ .

٥ ـ ابن جلجل ـ المصدر السابق ص ٥٤ .

٦ ـ ابن ابي اصيبعة ـ عيون الأبناء في طبقات الأطباء ـ تحقيق نزار رضا ـ بيروت مكتبة الحياة ص ١٦١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أفسد مثله وأكد بأن الماء حياة البدن وبه قوامه، وإن أنفعه ما شرب منه بقدر(٧).

توضحت الصورة في العصر الأموي بشكل أكبر، من حيث كثرة الأطباء وتطور المعلومات الطبية، ساعد على ذلك عدة أمور منها، أن المنطقة التي قامت فيها عاصمة الخلافة الأموية، كانت من المناطق المتحضرة والمتقدمة نسبياً في الفترة السابقة للفتح العربي الإسلامي لها، بمعنى أنه ليس من الغريب القول، بأنها كانت متقدمة على صعيد الطب والأطباء والحياة الصحية، وبالتالي لا بد أن يكون قد وجد فيها عدد من الأطباء كانوا عوناً لخلفاء بني أمية في تحقيق تطلعاتهم نحو حياة صحية أفضل تتناسب مع الإزدهار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني الذي توصلت إليه الدولة العربية الاسلامية في هذا العصر، لا سيما وأن الأمر لا يتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي، التي كانت مصدر كل شيء في ذلك الوقت، وهي لا تتعارض مع هذه التعاليم بقدر ما تطبق روحها ومضمونها وبخاصة منها التي جاءت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

والشيء الذي يقف أمامنا هنا كمانع قاهر في سبيل دراسة الحالة الطبية والصحية في هذا العصر دراسة تفصيلية واضحة، إن جميع المصادر التي اختصت بالحديث عن الأمويين وحكمهم خلال فترة قرن من الزمان تقريباً، لم تول هذا الشأن كبير اهتمام بالقدر الذي أولته للأحداث السياسية على سبيل المثال. وربما أنه لولا أن بعض الأطباء الذين كانوا قد عملوا لدى بلاط بعض الخلفاء والأمراء، لما كانت ذكرتهم كما هو واقع.

لكن على الرغم من كل ذلك، فإن الأمويين كحكام، كان لهم باع طويل إلى حدٍ ما بالتركيز على الناحية الطبية واستمرارها، كظاهرة تساعد على دفع حركة المجتمع باتجاه التطور، كما وجدوا أنه من الضروري لاستمرار الحياة وسعادة الرعية، الاهتمام بشؤون الصحة العامة لما فيها من فائدة في ازدهار المجتمع بشكل إيجابي، وتسهم في تقدمه على جميع المستويات، وهذا الاهتمام نلحظه منذ مطلع عصر الأمويين حتى خلافة عمر بن عبد العزيز، فاشتهر الطبيب ابن أثال، والطبيب الحكم بن أبي الحكم الدمشقي. وفي ولاية مروان بن الحكم، قام الطبيب السرياني ماسر جويه بترجمة كتاب (أهرن القس) من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، وحفظ في خزائن كتب الأمويين حتى ولاية الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي أمر بإخراجه إلى الناس للاطلاع عليه والانتفاع به(٨).

---

٧ ـ انظر ابن جلجل المصدر السابق ص ٥٤ ابن ابي اصيبعة المصدر السابق ص ١٦٢ القفطي ـ تاريخ الحكماء ص ١٦١ طبعة ليزيج ١٩٣٠ .

٨ ـ حكمت نجيب عبد الرحمن ـ المرجع السابق ص ٤١ ابن النديم ـ الفهرست ص ٤١٣ ابن جلجل ـ المصدر السابق ص ٦١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من مظاهر اهتمام الخليفة الوليد بن عبد الملك بالطب والأطباء وأمور المحافظة على الصحة العامة للأمة، أنه أمر ببناء بيمارستان بدمشق سنة ٨٨ هـ/٧٠٦ م وجعل فيه الأطباء، وأمر بحجر المجذومين وأجرى عليهم الأرزاق. ولم يقتصر بناء البيمارستانات على مدينة دمشق فحسب، بل أقيمت في أنحاء مختلفة من الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، كبيمارستان الفسطاط في مصر، واستمر بيمارستان جند يسابور على شدته في تقديم الخدمات الطبية والصحية، والتأهيل الطبي في العصر الأموي. وتشبه هذه البيمارستانات إلى حد كبير المشافي الحكومية في عصرنا الحاضر من حيث مداواة المرضى والاعتناء بهم حتى يتماثلوا إلى الشفاء. وبالنسبة للأمراض التي كانت شائعة في ذلك العصر، فلم تتحدث المصادر عن وجود أوبئة مستوطنة في أي إقليم من أقاليم الدولة على سبيل الحصر، يمكن الإشارة إليها، وإيضاح أسباب وجودها وطرق معالجتها، باستثناء تلك اللمحة الخاطفة التي أشار إليها كرزويل وهو يتحدث عن تاريخ بناء قصر الحير الشرقي والموقع الذي أقيم في هذا القصر، حيث ذكر أن وباء الطاعون جعل هشام بن عبد الملك يبتعد عن مكان إقامته السابق، ويبني مكاناً جديداً هو قصر الحير الشرقي(٩).

ولكي تتوضح حقيقة ما كانت عليه الحالة الصحية والطبية في العصر الأموي فليس أجدر من دراسة حياة الأطباء في هذا العصر، نشأتهم، ثقافتهم الطبية، وكيفية ممارستهم لمهنتهم في المشافي التي أنشئت. واشهر الأطباء الذين عرفوا في العصر الأموي:

ابن أثال، الذي يمكن اعتباره نموذجاً للطبيب الصيدلي، لأن ما اشتهر عنه بالإضافة إلى معرفته الطبية، أنه كان عارفاً بمسائل تحضير الأدوية، والعقاقير الطبية. فقد اختص الخليفة الأموي الأول، معاوية بن أبي سفيان بتعيين ابن أثال كطبيب خاص له يرافقه في الحل والترحال أينما ذهب وحيثما أقام، وذلك لشدة ما كان يثق به ويعتمد عليه، ويعتقد فيه، لدرجة أنه كان كثيراً ما يبقيه معه في الليل. وكان يعتمد عليه في تحضير بعض السموم، التي كان معاوية يستخدمها أحياناً في القضاء على خصومه ومعارضيه. وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة أعمق، ولقد عرف عن هذا الطبيب خبرته الواسعة في تحضير السموم، ومما يدل على ذلك تلك الإشارة التي ذكرها ابن أبي أصيبعة حيث قال: "ومات في أيامه جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم"(١٠).

---

٩ ـ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩٠ احمد عيسى بك ـ تاريخ البيمارستانات في الدولة الإسلامية، مخطوط الظاهرية رقم ٧/٧٣ ص ٣٤ ـ ٣٦ ، ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق ص ١٧١ .

١٠ ـ انظر لوسيان لوكليرك ـ تاريخ الطب العربي ص ٨٦ ابن ابي اصيبعة ـ المصدر السابق ص ١٧٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبو الحَكم الدمشقي النصراني. ولم ترد في المصادر أي تسمية له أبعد من ذلك. أما معارفه الطبية فلم تكن لتختلف عن معارف سلفه في شيء، من حيث معرفته الواسعة في تحضير السموم، فقد جمع بين معرفة الطب والأدوية المفردة وكيفية تحضيرها، وبقي الطبيب الخاص بمعاوية، يوجهه كيفما يشاء حتى وفاته. وهو الذي أشرف على علاج عبد الملك بن مروان في وعكته الأخيرة، التي أدت إلى وفاته، فكان أن حذره من شرب الماء حتى أربعة أيام، لكن عبد الملك لم يسمع نصيحة أبي الحكم، فأقدم على تناول الماء بعد ثلاثة أيام، الأمر الذي أدى إلى وفاته(١١).

ومن أسرة أبي الحكم اشتهر ابنه المعروف (الحكم الدمشقي) وكان طبيباً مرافقاً لوالده، لأنه كان عارفاً بأمور المداواة وبعض المسائل الطبية الأخرى، التي كان قد استقاها وعرفها على يد والده. ومع أن المصادر لا توليه تلك الأهمية التي أولتها لوالده، فإنه امتاز عن أطباء عصره ومن جاء قبله، بناحية كانت لها أهميتها الكبيرة في علم الطب في العصر الأموي، تلك الميزة هي معرفته في علم الجراحة الطبية أنذاك، ولكنها لا تعدو أن تكون مظهراً من مظاهر مهارته في مهنته ومعرفته لعلم الطب(١٢).

ويأتي في سلسلة الأطباء الذين اشتهروا في العصر الأموي، طبيب اختص بتطبيب الحجاج بن يوسف الثقفي، أحد الولاة البارزين في خلافة بني أمية هو، ثياذوق الذي عرف بمهارته الطبية الواسعة، الأمر الذي حدا بالحجاج بن يوسف الثقفي لأن يقربه ويغدق عليه الأعطيات المجزية. وقد اشتهر بمهارته في صنعته، ويمكن اعتباره من الأطباء العامين في الصحة. ويبدو أنه كان متأثراً بالطب النبوي، من ذلك أنه نهى عن الزواج من المرأة المسنة، وحض على الزواج من المرأة الشابة. وحض على عدم شرب الدواء إلا عند المرض، ونهى عن أكل الفاكهة غير الناضجة، لأنها تسبب الغازات في جوف الإنسان، وحض على النوم خلال النهار وبخاصة بعد تناول الطعام، والمشي وقت المساء، وعدم حصر البول في المثانة، والاستحمام كل يومين على الأقل، وعدم أكل الأشياء التي لا يمكن مضغها جيداً، وعدم إدخال الطعام على الطعام تجنباً للتخمة، إلى غير ذلك من نصائح طبية.

ويمكن أن نحصر الجديد الذي أتى به، بإشارة تفيد بأن قشر الفستق إذا ما لاكه الإنسان ومضغه بشكل جيد، فإنه يؤدي إلى إيقاف الإسهالات مهما كانت قوية وشديدة. يضاف إلى

١١ ـ ابن ابي اصيبعة المصدر السابق ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، لوسيان لوكليرك، المرجع السابق ص ٨٣ ـ ٨٤ .

١٢ ـ ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ، لوسيان لوكليرك ص ٨٣ ـ ٨٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك أنه أقدم على تأليف كتاب بالأدوية سماه (ابدال الأدوية) ويدور مضمون هذا الكتاب حول كيفية تحضير الأدوية ومزجها، وبالتالي تسمية الأمراض التي يمكن معالجتها بواسطتها(١٣).

ومن هؤلاء الأطباء أيضاً ماسر جويه، الذي يختلف عن كل الأطباء الذين ظهروا في فترة حكم الأمويين في ناحية هامة، هي إقدامه على الاشتغال بالترجمة ونقل الكتب من بعض اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، بالإضافة إلى اشتغاله بأمور الطبابة والمداواة. فقد قام بترجمة كتاب أهرن ابن أعين القس في الطب، والذي وصف بأنه أفضل الكتب التي أُلفت في ميدان الطب في العصور القديمة. ومما يؤكد صحة ذلك، أن عمر بن عبد العزيز أمر بإخراج هذا الكتاب إلى الناس ليقرأوه ويستفيدوا منه(١٤).

وعلى الرغم من المستوى الرفيع الذي بلغه ماسر جويه في معرفته الطبية فقد وقف حائراً أمام بعض الحالات المرضية، التي كانت تعرض عليه من قبل المرضى مباشرة، الأمر الذي يجعلنا نميل إلى الظن بأن معظم الذين عرفوا في هذه الفترة كانوا متقاربين في مستوى الأهلية والخبرة الطبية. مثال ذلك أن رجلاً جاءه يشكو من ألم في بطنه، والألم كما وصفه المريض يبدو وكأن أحياء حية تتحرك في بطنه، ولا تختفي هذه الحركات في بطنه إلا إذا أكل، فإذا ما أكل سكن كل ما كان يشعر به من ألم. ثم لا تلبث أن تعاوده الحالة نفسها حينما يجوع. ولم يفعل ماسر جويه شيئاً أمام هذه الحالة المرضية، سوى أنه وقف حائراً أمام المريض وأخبره بأنه هو نفسه يعاني منها بشكل أعنف وأشد(١٥).

إن هذه الحالة تقودنا بلا شك، إلى أن معلومات الأطباء في فترتنا هذه كانت بمجملها معلومات محدودة نقلوها عن الذين سبقوهم بطريقة الحفظ، وربما أدخلوا عليها بعض الإضافات والتحسينات، فكانوا يعرفون فقط تطبيب الحالات التي حفظوا عنها، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير في تقصي أسباب الظواهر المرضية التي تستجد، كتلك الحادثة التي ذكرناها.

لقد رافق وجود الأطباء والمهتمين بالحكمة في العصر الأموي، وجود المشافي الحكومية التي كانت يعودها المرضى، ويتلقون فيها المعالجة المجانية. وهذا النوع من الخدمة العامة للاهتمام بالصحة العامة للمريض، وتقديم العلاج الملائم له، والمناخ المناسب لحالته الصحية، بما يشبه المستشفيات في أيامنا هذه، وبخاصة في الدول التي توصلت إلى تأميم الطب، ومجانية توفير

١٣ ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج ٤ ص ٣١٤ ـ القفطي ـ تاريخ الحكماء ص ١٠٥ ، ابن ابي اصيبعة ـ المصدر السابق ص ١٧٩ .
١٤ ـ القفطي ـ المصدر السابق ص ٣٢٤ و ٣٢٨ ابن جلجل المصدر السابق ص ٦١ لوسيان لوكليرك ٧٧ ـ ٧٨ .
١٥ ـ القفطي ـ المصدر السابق ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التطبب إلى جميع المواطنين المرضى، فوفرت في تشريعاتها وأنظمتها في ميدان الخدمات العامة للمواطنين مسألة الضمان الصحي كحقيقة واقعة ملموسة.

وكان من أقدم هذه البيمارستانات في هذه الفترة، البيمارستان الذي بني تحت المأذنة الغربية من المسجد الأموي الكبير بدمشق، وينسب بناء هذا البيمارستان إلى معاوية بن أبي سفيان أو إلى ابنه يزيد(١٦) وبمدينة دمشق أيضاً البيمارستان، الذي أمر ببنائه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي السادس، بعد أن تولى الخلافة. وقد خصص الوليد هذا المشفى للمرضى من الزمنى والمجذومين والعميان والمساكين، وخصص لهؤلاء المرضى الخدم والأطباء والأدوية والأرزاق، وغير ذلك ن المستلزمات التي تتطلبها حالتهم الصحية.

وفي مصر بني بيمارستان القسطاط في حي القناديل(١٧).

ووجد في جند يسابور(١٨) بيمارستان اشتهر منذ فترة طويلة قبل ظهور الإسلام. وقد ظل هذا البيمارستان محافظاً على شهرته في العصر الأموي، وبشكل خاص كمؤسسة تعليمية للطب، وتخريج الكوادر الطبية، حيث يمكننا القول بالاعتماد على المعلومات، التي وفرتها لنا المصادر، أن جميع الأطباء الذين عرفوا في العصر الأموي، تخرجوا منه(١٩).

إن وجود مثل هذه البيمارستانات في العصر الأموي، يدل على أن الأطباء الذين ذكروا في هذا البحث، لم يكونوا وحدهم الذين مثلوا القواعد الكاملة للكادر الطبي عند الأمويين، ذلك لأن المصادر لا تذكر أن أحداً من الذين ذكرناهم وأبرزنا أهم معارفهم الطبية، عمل في هذه البيمارستانات إلا القليل النادر، لأنهم كانا مختصين بمعالجة الحكام فقط، الأمر الذي يساعد على القول، بأن هناك عدداً كبيراً من الأطباء، الذين لم تهتم بذكرهم المصادر، وهم الذين قاموا بمهمة معالجة المرضى في هذه البيمارستانات التي أتينا على ذكرها.

وبصورة عامة يمكن أن نجمل الحالة الطبية في العصر الأموي بالقول، أن المكتشفات العلمية خلال هذه الفترة كلها، لم تكن ذات قيمة كبرى، يمكن وضعها في قائمة المكتشفات العلمية العربية في العصور الوسطى، وذلك كما كان الحال عليه في الفترات اللاحقة. واقتصر الأمر بأن الأطباء الذين عرفوا في هذا العصر، كانوا يقرأون كتب غيرهم ويطبقون مضمونها، دون أن

١٦ ـ ابن العماد الحنبلي ـ شذرات الذهب ج ٣ ص ٤ .

١٧ ـ احمد عيسى بك ـ المصدر السابق ص ٣٤ وما بعدها.

١٨ ـ جند يسابور مدينة بإقليم خوزستان فتحها المسلمون سنة ١٩ هـ.

١٩ ـ احمد عيسى بك ـ المصدر السابق ص ٣٤ ـ ٣٥ ز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يركزوا على مسألة تطويرها أو إغنائها بإضافات علمية جديدة ومبتكرة، ومع ذلك فإن ما عرف في هذا العصر في مجال الطب وممارسته، كان كبيراً بالقياس إلى الفترة التي سبقته، بالإضافة إلى أهميته الكبرى من حيث اعتباره الركيزة الأساسية الأولى، والقاعدة الثابتة العريضة للانطلاق نحو آفاق جديدة في ميدان علم الطب.

وفي العصر العباسي عم الترف وتنوعت المآكل والمشارب، فتعرضت أجسام الناس لأمراض حضرية فاحتاجوا إلى العناية الطبية بصورة كبيرة. لذلك نرى الخلفاء العباسيون الأوائل، يقررون الاهتمام بمسألة الطبابة، بعد أن سمعوا شيئاً كثيراً عن الطب اليوناني، ورأوا أنه لا يليق بالأمة العربية أن تتغافل عن هذه المسألة، فاستقدموا الخبراء وأرسلوا البعثات إلى مواطن العلم.

وكان الخبراء الذين استقدمهم الخلفاء العباسيون هم آل يختيشوع، الذين اشتهروا كثيراً في هذا العصر. وكان أشهر المبعوثين العرب حنا ابن ماسويه. رحل إلى جنديسابور وتعلم الطب هناك. لكنه لم يبلغ من النجاح في العلاج ما بلغه زملاؤه من أهل جنديسابور. ترجم كتباً كثيرة عن السريانية. وربما لم تكن جيدة، لذلك لم يلبث العرب أن تركوه وعكفوا على الترجمة من اليونانية. ولعل أكبر فضل لابن ماسويه هو أنه أول عربي تولى الترجمة والتأليف والعلاج، رغم أنه لم يبلغ في أي منهما مبلغاً كبيراً. وقد ازدهر عصر الترجمة من اليونانية وغيرها إلى العربية في عهد هارون الرشيد والمأمون. فكان في مدينة بغداد حينذاك ثلاث مجموعات كل مجموعة تنسب إلى بلد بعينه، وكان لكل منها عمل محدد.

أما المجموعة الأولى فكان قوامها أهل جنديسابور وفي مقدمتهم جبرائيل ابن يختيشوع، وقد تجسد عملهم الرئيس ي مداواة الخلفاء والأمراء والوزراء، حيث امتلكوا الخبرة الجيدة في ميدان الطب، مما لم يتوفر لدى غيرهم من أطباء ذلك العصر. وكان جبرائيل مثل والده همه العلاج أكثر من الترجمة والتأليف. وقد شجع نجاحه وخطوته عند الخلفاء إلى حمل الناس على الاهتمام بالعلوم الطبية والسعي إلى إتقانها يرجون بذلك أن يبلغوا ما بلغه جبرائيل من المجد والغنى.

أما المجموعة الثانية، فكانت من أهل الحيرة وعلى رأسهم حنين بن اسحق وهو من أكبر نوابغ ذلك العصر، وكان معه ابنه اسحق وابن أخته حبيش. تتلمذ حنين بن اسحق على حنا بن ماسويه، ثم عكف على دراسة اللغة السريانية، ثم رحل إلى اليونان وحذق لغتها، ثم عاد إلى البصرة وأخذ العربية على خيرة علمائها. ثم عهد إليه المأمون برئاسة بيت الحكمة، وقام حنين بترجمة الكتب الطبية اليونانية ترجمة متقنة دقيقة، وبخاصة لكتب أبقراط وجالينوس. وقد شكر أهل بغداد لحنين فضله في دفع نهضتهم إلى الأمام، فقد بلغت من المجد العلمي غايته، وأصبح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرجع الأكبر للمترجمين في ذلك العصر، حيث كان المترجمون يعرضون عليه الكتب، التي أقدموا على ترجمتها. وله مؤلفات طبية أشهرها عشر مقالات في طب العين، وأغلب الظن أن ذلك كان إيضاحاً وتفسيراً لما كتب جالينوس من أمراض العين.

أما المجموعة الثالثة فكانت من أهل حران، وكان في مقدمتهم ثابت بن قرة وابنه سنان وكلاهما كان طبيباً ممارساً، ويقال أن ثابت بن قرة لم يبلغ في هذه الصناعة ما بلغه أهل جنديسابور، كما لم يبلغ في الترجمة ما بلغه حنين، ولكنه مع ذلك كان واسع الاطلاع والعلم، في الهندسة والفلك إضافة إلى الطب عمله الرئيس. أما ابنه سنان فكان أقدر منه وأعلم بالطب، يدلنا على ذلك أن الخليفة المقتدر عهد إليه بامتحان الراغبين في تعاطي صناعة الطب قبل أن يسمح لهم بعلاج المرضى، وهو أمر لا يعهد به إلا لكبار الأطباء المتمكنين في العلم(٢٠).

ولما نضج العلم عند الأطباء العرب وتأكدوا من معارفهم وعلمهم بالطب اليوناني، رأوا أن يؤلفوا كتباً على غرار المؤلفات اليونانية لا تكون منقولة عنها. وسنقتصر على ما كتبه كبار المؤلفين في ذلك العصر. وسنرى أن كثيراً من مؤلفاتهم الأولى، تتناول طب العين. كتب فيها حنا بن ماسويه وحنين ابن اسحق، وثابت بن قرة وغيرهم. وربما كان ذلك إما لكثرة أمراض العين وإما لسهولة فحص العين وتشريحها.

كان أول المؤلفين العرب، الذين نهجوا هذا المنهج علي بن زين، الذي كتب كتابه (فردوس الحكمة) وقسمه إلى أبواب ومقالات لكنه لم يأت فيه بجديد، لا من ناحية المادة العلمية، ومن ناحية التنسيق. ولكنه على كل حال تأليف يدل على ثقة المؤلف بعلمه، تلك الثقة التي ظهرت واضحة عند الأطباء العرب في ذلك العصر. ويعتقد أن كتبهم لم تكن في مستوى الكتب أو المؤلفات اليونانية، ولكنها كانت من غير شك شيئاً جديداً على الثقافة العلمية العربية(٢١).

ومنذ أواسط القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أخذ الجانب العلمي يظهر بوضوح، وأخذ الأطباء منذ أيام الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ/٩٢٦ م يهتمون بالملاحظات السريرية أي دراسة سير المريض وتطوره، وبمسألة الاختبار والتجربة في معالجة المرضى بالأدوية المختلفة. ونشأت مدارس للطب في العالم العربي، كان فيها التدريس طريقتين، طريقة نظرية في المدارس الطبية، وطريقة عملية للتدريب والتمرين، يجمع فيه الطلاب حول رئيس الأطباء، فيرون كيف يفحص المرضى

٢٠ . انظر عن ذلك محمد كامل حسين . مقالة في كتاب اثر العرب والإسلام في النهضة الاوروبية، طبعة مصر ١٩٨٧ ص ٢٥٠ وما بعدها.

٢١ . محمد كامل حسين . المرجع السابق ص ٢٥٢ . ٢٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما يصف لهم من العلاج، وإذا أكمل الطلاب مدة الدراسة، تقدموا للامتحان ثم أقسموا اليمين ونالوا الشهادة. ثم إذا هم بدأوا ممارسة التطبيب كانوا دائماً تحت رقابة الدولة.

كان في العصر العباسي عدد كبير من الأطباء المتمرنين، الذين لا يحملون إجازات، لكن بعض الأخطاء التي وقع فيها بعضهم سنة ٣١٩ هـ/٩٢١ م جعلت الخليفة المقتدر يصدر أمراً بمنع أي من الأطباء من مداواة الناس إلا بعد أن يؤدي امتحاناً خاصاً وينجح فيه.

وحتى نتعرف أكثر على حقيقة التقدم الطبي في العصر العباسي، لا بد من التعرض لدراسة أشهر وأعظم الأطباء في هذا العصر، الذين كان في مقدمتهم الطبيب أبو بكر الرازي، الذي بدأ بدراسة الطب بعد أن بلغ الثلاثين من عمره، وسرعان ما أصبح الطبيب المعول عليه، حينما انتخب من بين عدد كبير من الأطباء لرئاسة البيمارستان العضدي بمدينة بغداد. وكان الرازي أول طبيب من العرب دوّن ملاحظاته على مرضاه، وراقب تطور المرض وظواهره، وكان يراجع في الوقت نفسه كل ما وقع تحت نظره من كتب طبية، فكان كثير الملاحظة غزير الإنتاج، ألف العديد من الكتب وأشار إلى مصادرها اليونانية والهندية والفارسية والعربية. وهو أول من وصف مرض الجدري والحصبة في كتاب صغير، يعد من خيرة ما وصلنا من التراث الطبي العربي في العصور الوسطى. وهو أول من قال بالمرض الوراثي، وأول من استخدم الماء البارد في الحميات المستمرة، وهو أمر أقره علم الطب الحديث. وكان إضافة لذلك صيدلانياً كيماوياً، وهو أول من استعمل الزئبق(٢٢).

في مقدمة مؤلفات الرازي الطبية كتاب الحاوي. وهو كتاب ضخم شامل جمع فيه الرازي بين طب الهند وطب اليونان، ثم أضاف إليهما تجاربه وملاحظاته. تكلم الرازي في هذا الكتاب على أمراض الرأس: كالسكتة والفالج وأوجاع الأعصاب واسترخائها، وعلى الصرع والكابوس والتشنج والكزاز، ثم على أمراض العيون والأنف والأذن والأسنان. وكان في أثناء ذلك كله يسمي أعراض كل مرض ويصف العلاج الموافق له، ثم يؤكد تشخيصه وصحة مداواته بأمثلة كثيرة في تجاربه(٢٣).

وقسّم الرازي هذا الكتاب إلى قسمين أحدهما (الأقرباذين) وهي كلمة مأخوذة من اليونانية، ومعناها رسالة صغيرة، ويقتصر بها على تركيب الأدوية، وثانيهما مجرد ملاحظات سريرية

٢٢ ـ انظر عن ذلك عبد العزيز بنعبد الله ـ الطب والأطباء بالمغرب ص ٨٩ ـ انور الرفاعي ـ الإسلام في حضارته ونظمه ـ طبعة دار الفكر ١٩٧٣ ص ٥٩٨ .

٢٣ ـ عمر فروح ـ تاريخ العلوم عند العرب ـ طبعة بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٨٤ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جمعها تلامذته بعد وفاته من سجلات المستشفى العضدي، ومن مذكراته وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية(٢٤).

وله كتاب المنصوري، كتبه للأمير منصور حاكم خراسان، وهو عشرة أقسام أكثر ترتيباً ووضوحاً من الحاوي النظري والعملي، وهو موجز لكتاب الحاوي، تترجم إلى اللاتينية وبقي كتاب التدريس المقرر في جامعات أوروبا الطبية حتى القرن السابع عشر، وطبع عدة طبعات في ميلانو والبندقية وليون وبادوا وبال. وله رسالة في الجدري والحصبة، فيها أول وصف سريري لهما، وهو أول من فرق بينهما وأشار إلى انتقالهما بالعدوى. وقد وصف الطفح، الذي يرافقهما وصلته بارتفاع درجة الحرارة، كما أكد أهمية فحص النبض والتنفس والبراز عند المريض بهما. ثم تكلم على التشوهات التي تحدث من جرائهما ونصح بإتباع طرق يمكن أن تحول دون هذه التشوهات، وهي أوجز مما كتب في الطب العربي في العصور الوسطى، وقد ترجمت إلى اللاتينية وطبعت عدة مرات، وطبعت عام ١٨٤٨ إلى الانكليزية.

وله كتاب الأسرار، وهو كتاب في الكيمياء يبحث في الأدوية وتركيبها وتحضيرها وخصائص الأجسام، ترجم إلى اللاتينية خلال القرن الثاني عشر الميلادي. وله الكتاب الجامع، وجمع فيه الرازي العلوم الطبية قديمها وحديثها مضافاً إليها اختباراته الواسعة. وله كتاب طب الفقراء، ويبحث في الإسعافات الأولية في حالة غياب الطبيب والأدوية الموجودة في كل مكان، وفائدة الماء البارد ومداواة الزكام، ومنافع الحمام ومضاره والرازي هو أول من استخدم مصارين الحيوانات لخياطة الجروح، وأول من استخدم الرصاص الأبيض في المراهم(٢٥).

ثم جاء علي بن العباس المجوسي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٤ م وهو من تلامذة الرازي، فوجد لديه علماً نظرياً غزيراً وعلماً عملياً مستقراً، فبدا له أن يؤلف كتاباً جامعاً في الطب يكون أوضح من كتب أبقراط، التي كان اختصارها سبباً في غموضها، ويكون أقل إطناباً من كتب جالينوس، فألف كتاباً سماه (الملكي) أو (كامل الصناعة الطبية) وهو أحسن إيجازاً وتنسيقاً من كتاب الحاوي للرازي. وفي هذا الكتاب كلام على الشرايين الشعرية الدقيقة، وملاحظات سريرية صائبة، كما فيه كلام على حركة الرحم، وذلك أن الجنين لا يخرج من تلقاء نفسه، ولكن الرحم هي التي تدفعه إلى الخروج. وكان حظ هذا الكتاب سيئاً، ذلك لأنه كان قبيل كتاب القانون لابن سينا بوقت قصير، فأهمل هذا الكتاب من الناس المهتمين مفضلين عليه كتاب القانون(٢٦).

٢٤ ـ انور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٥٩٩ .

٢٥ ـ عمر فروخ ـ المرجع السابق ص ٢٧٧ ـ ٢٨٧ انور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٥٩٩ .

٢٦ ـ محمد كامل حسين المرجع السابق ص ٢٥٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن أعظم أطباء العرب المسلمين، هو ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ/١٩٣٧ م، الذي سطع نجمه في سماء الطب العربي، جمع الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والموسيقى واللغة معاً، لقب بالشيخ الرئيس، واسمه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، ولد قرب مدينة بخارى في بيت له اشتغال بخدمة الدولة، وتلقى العلوم العقلية والشرعية في بيت أبيه، وقد نضج عقله وجسمه نضوجاً سريعاً مبكراً، وكانت له ذاكرة غريبة، فقد حفظ القرآن في العاشرة من عمره، ودرس الفلسفة والطب في بخارى وأصبح طبيباً يمارس الطب ويعلمه في السادسة عشرة من عمره، وأسعفه الحظ بشفاء الأمير نوح بن منصور الساماني على يديه فقربه إليه وأذن له بالدخول في دار كتبه، فانكب على دراسة ما فيها من كتب الطب والفلسفة ومختلف العلوم، وكان كله من غير معلم، وقد قال عن نفسه، أنه ملك جميع العلوم والمعلومات الميسورة لجيله حتى سن الواحدة والعشرين. واشتغل ابن سينا بالسياسة فتعرض لتقلباتها، وأخذ يتنقل من قصر أمير إلى قصر أمير حتى قلد الوزارة لشمس الدولة في همذان، ثم سجن وأفرج عنه. بلغ ابن سينا الغاية في الطب، وكان من أذكياء العالم، لكنه مع ذلك كان أكثر ميلاً بطبعه إلى الفلسفة، ومن هنا كان كتابه مقبولاً عند المفكرين والممارسين، على حين أن كتب الرازي كانت أكثر قبولاً عند الممارسين خاصة. ولعل ابن سينا لم يتفرغ لفحص المرضى و..... خير علاج لهم. ولا يعني ذلك أن علمه بالطب كان ناقصاً، ولكنه يعني أن تصوره للطب كان تصوراً يليق بفيلسوف مثله. ولعله كان يرى ما كان يعتقده أكثر الناس إلى عهد قريب، أن ثقافة الطبيب الممارس ثقافة مهنية، وأن فلسفة الطب أصدق وأرق من ممارسته.

درس ابن سينا النبض دراسة وافية، وربط بين أحواله المتفاوتة وبين الأمراض المختلفة، كما بيّن أثر العوامل النفسية في اضطرابه، ووصف السكتة الدماغية واحتقان الدماغ، وأشار بمعالجة الدماغ المحتقن بالتبريد، ثم توسع في دراسة الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية وعالجها ببراعة ونجاح. وهو أول من وصف التهاب السحايا الأولي وصفاً صحيحاً، ووصف أسباب اليرقان وصفاً مستوفياً، وفرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي في الدماغ أو عن سبب خارجي. وفرق بين داء الجنب وبين التهاب الحجاب الحاجز، وعرّف خصائص العدوى في السل الرئوي وفي انتقال الأمراض التناسلية، وعلل الميول الشاذة في الإنسان.

ودرس ابن سينا الجهاز الهضمي دراسة وافية، وعرّف الأعراض السريرية والعلامات الفارقة للحصاة، إذا كانت في الكلية أو إذا كانت في المثانة. وبرع في دراسة أحوال العقم، وعرّف أن حالاً منها نشأ من فقدان الوفاق النفسي والطبيعي بين الزوجين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتكلم ابن سينا على الأورام الخبيثة كلاماً مقبولاً في الوقت الحاضر. ذكر أن السبيل الوحيد للشفاء من الورم (السرطان) إنما هو الجراحة في أدوار المرض الأول، ومع هذا فإن الشفاء غير أكيد(٢٧).

وعرف ابن سينا عدداً من الحقائق المرضية من طريق التحليل النفسي، حينما هرب ابن سينا من السلطان محمود الغزنوي، ذهب إلى جرجان متخفياً. وكان أحد أقارب أمير تلك الناحية مريضاً مرضاً عجز الأطباء عن معرفته، فلما علم أهل المريض بقدوم طبيب إلى ناحيتهم، وهم لم يعرفوا أنه ابن سينا، دعوه إلى علاج فتاهم. فحص ابن سينا الفتى، فلم يجد به مرضاً، فطلب رجلاً يعرف أسماء جميع الأمكنة في تلك الناحية، فجيء له به، فلما جاء سأله أن يسرد عليه، وعلى مسمع من الفتى، أسماء جميع الأمكنة في تلك الناحية. فلما لفظ الرجل اسم مدينة معلومة ـ وكان ابن سينا يجس نبض المريض ـ اضطرب نبض الفتى اضطراباً ظاهراً. حينئذ طلب ابن سينا رجلاً يعرف أسماء الأ ر والأشخاص في الحي المعين، وهكذا عرف ابن سينا أن الفتى مشغوف، ثم قال لأهله، ليس بابنكم مرض، ولكنه يحب فلانة بنت فلان القاطنة في الحي الفلاني في البلدة الفلانية.

وتآليفه الطبية تمتاز بحسن وضعها وبترتيبها وإبرازها في قالب منطقي قوي الحجة قاطع البرهان، مما جعل كتاباته شديدة التأثير على رجال العلم في القرون الوسطى لمدة طويلة بلغت ثمانية قرون. وقد بلغت تآليفه حوالي المئة في مختلف العلوم، وأهمها:

كتاب القانون في الطب، وهو من الكتب العالمية، مثله كمثل فلسفة أرسطو، وهندسة إقليدس، وكتاب المجسطي في الفلك، وكتاب سيبويه في النحو، وهذه ضمنت حلاً لكل المشاكل المتعلقة بموضوعها، ولا حاجة إلى الزيادة فيها أو تغييرها. وهو أفضل تراث في الطب العربي، ويقسم إلى خمسة أقسام تبحث في تشريح جسم الإنسان، وفي حفظ الصحة والوقاية من الأمراض، وفي العلاج عموماً، والأدوية المفردة مرتبة حسب الحروف الهجائية، وفي الحميات والقروح والجراحة والكسور والسموم وأمراض الجلد وما إليها. وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وطبع أكثر من ثلاثين طبعة.

وله الأرجوزة في الطب، وهي قصيدة من الشعر من ١٣١٤ بيتاً، جمعت الطب وحفظ الصحة وأنواع العلاج، ترجمت إلى اللاتينية وعلق عليها ابن رشد وابن زهر تعليقاً حسناً(٢٨).

٢٧ ـ عمر فروخ ـ المرجع السابق ص ٢٤٨ وما بعدها.

٢٨ ـ انور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٦٠١ محمد كامل حسين ـ المرجع السابق ص ٢٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقبل أن ننتقل إلى الأندلس والمغرب، فلا بد من التنويه بطبيب آخر هو ابن النفيس الدمشقي المتوفى سنة ٦٨٦ هـ/١٢٨٨ م، الذي تلقى العلم بدمشق وبالقاهرة، ثم أصبح رئيساً للمستشفى الناصري بالقاهرة. ويعد ابن النفيس رائد الجديد والمبتكر في ميدان الطب العربي، فالأطباء العرب لم يحدثوا أفعال جدية كثيرة في فلسفة الطب ولا في الكليات التي قامت عليها هذه الفلسفة، وظلوا على إيمانهم بالأخلاط والقوى والأمزجة ما دامت كافية لإيضاح ما يريدون استضاحه. والجديد في علمهم بالتشريح قليل من غير شك، لأنهم لم يقوموا بالتشريح إلا نادراً. على أن أكبر عمل للعرب في التشريح ووظائف الأعضاء، هو ما عمله ابن النفيس في شرح الدورة الدموية الصغرى(٢٩)، الذي يُعد من أهم الكشوف في مجال الطب التشريحي.

من مؤلفاته بالطب كتاب (الموجز في الطب) اختصر فيه كتاب القانون لابن سينا. وكتاب (شرح قانون ابن سينا). ولما شرح القسم المتعلق بالتشريح في كتاب القانون، اهتم كثيراً بتشريح القلب وباتصال الشرايين به وبتشريح الحنجرة لأنه كان يرى صلة بين التنفس والنبض، أو بين التنفس وبين انتقال الدم من الرئة إلى القلب ومن القلب إلى الرئة(٣٠).

أما في الأندلس والمغرب فخلال ما يقرب من مئة وخمسين سنة من حكم العرب في المغرب والأندلس، كان الطب يعتمد على الكتب اللاتينية، التي ترجم بعضها إلى العربية مثل كتاب (باولوس أوروسيوس) الذي يذكره الأطباء باسم (هروشيوش) وكتاب (الحشائش) لديسقوريدس، الذي أسهم ابن جلجل صاحب كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) بنقله إلى العربية والتعليق عليه. أما بعد ذلك فقد بدأت الكتب الطبية المشرقية، تصل تباعاً إلى الأندلس وكان في مقدمتها كتاب (الأدوار والألوف) لأبي معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ ٨٨٦ م الذي اعتمد عليه ابن جلجل كمصدر من مصادره الهامة في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء). وما يؤيد ذلك أنه ذكر، بأنه لم يكن في الأندلس لغاية عهد أميرها عبد الرحمن بن الحكم الذي حكم من سنة ٢٠٧ إلى ٢٣٨ هـ إلا أطباء نصارى يعتمدون في عملهم على كتاب مترجم يقال له (الأبريسم) ومعناه المجموع أو الجامع(٣١).

وخلال هذه الفترة أو بعدها بسنين قليلة اشتهرت أفريقية (تونس الحالية) بالطب إلى حد ما، حيث كان تأثير بغداد عظيماً، التي ازدهرت علومها كثيراً ولا سيما خلال القرن الثالث الهجري

٢٩ ـ حركة الدم بين القلب والرئتين.

٣٠ ـ عمر فروخ ـ المرجع السابق ص ٢٩١ محمد كامل حسين المرجع السابق ص ٢٦٧ .

٣١ ـ ابن جلجل ـ طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد ـ طبعة القاهرة ١٩٥٥ ص ٩٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ التاسع الميلادي حيث انتشرت الترجمة وبخاصة من اليونانية. وكان انتقال علوم الطب من بغداد إلى القيروان بواسطة الطبيب اسحق بن عمران، الذي استقدمه أحد أمراء الأغالبة، الذي لا نعرف من هو على وجه التحديد لاختلاف الروايات حول ذلك. وكان لاسحق هذا فضله الكبير في ميدان الطب، حيق قام بممارسة الطبابة من خلال المعالجة والتشخيص والمداواة، ونشر ذلك من خلال تدريسه للطلبة وبعض المؤلفات، التي كتبها بالقيروان. وقد انتشر ذكره في أرجاء المغرب العربي، وبه ظهر الطب هناك(٣٢).

وفي عصر الأميرين الأندلسيين محمد بن عبد الرحمن، وعبد الله بن محمد (٢٣٨ ـ ٣٠٠ هـ، ٨٤٣ ـ ٩١٣ م) برع بعض الأطباء، ولكن لم يهتموا في مجال التأليف، وكان يعتمدون في ميدان الأدوية على كتاب الحشائش لديسقوريدس، الذي كان قد ترجمه(٣٣) لأن الأندلس لم تعرف كتب الطب المشرقية بشكل بيّن إلا في عهد الناصر لدين الله أول الخلفاء الأمويين هناك، والذي حكم من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ ـ ٩١٣ ـ ٩٦٢ م، وفي ذلك يقول ابن جلجل: "ثم ظهرت دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد فتتابعت الخبرات في أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم، وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين"(٣٤).

وكان لابنه الحكم المستنصر الفضل الكبير في دفع الحركة الثقافية إلى الأمام، حينما أمر بجلب المؤلفات العلمية المشرقية، فحملت إليه من كل صوب، حتى غصت بها خزائنه العلمية(٣٥) وأصبحت مدينة قرطبة من أرفع المنارات العلمية العربية.

كما بدأ التأليف في هذا العهد نتيجة تأثير الروح العلمية السائدة. فقام الطبيب يحيى بن اسحق بتأليف كنائس في الطب سماه (الأبريسم) في خمسة أسفار، وألف ابن جلجل كتاباً هاماً سماه (تفسير أسماء الأدوية المفردة) وهو تفسير لما ورد في مضمون كتاب الحشائش لديسقوريدس(٣٦).

وألف الزهراوي الذي عُدّ أعظم أطباء عصره كتاباً سماه (التعريف لمن عجز عن التأليف)

٣٢ ـ ابن جلجل ـ المصدر السابق ص ٨٤ ـ ٨٦ وانظر كتابنا تاريخ المغرب العربي طبعة دمشق ١٩٩٢ ـ ص ٩٣ .

٣٣ ـ انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن ابي اصيبعة ج١ ـ ص ٤٦ ـ ٤٨ .

٣٤ ـ ابن جلجل المصدر السابق ص ٩٧ ـ ٩٨ .

٣٥ ـ ابن الأبار ـ الحلة السيراء ـ ج١ تحقيق حسين مؤنس طبعة اولى القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

٣٦ ـ ابن جلجل ـ المصدر السابق ص ١٠١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فجاء على هيئة موسوعة راقية في الطب، وترجمه إلى اللاتينية جيرارد والكريموني، وكثر اعتماد الناس عليه في العصور الوسطى. وأهم ما في هذا الكتاب الجزء، الذي يتحدث فيه الزهراوي عن تحضير الأدوية المفردة، والجزء الذي يتحدث فيه عن الجراحة، الذي يُعد أول مؤلف في ميدان الجراحة، وهو الذي جعل الجراحة علماً قائماً بذاته مستقلاً عن الطب، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح(٣٧).

أما في عصر المرابطين والموحدين، فقد تطور علم الطب في الأندلس والمغرب، حتى غدا يضم جميع الاختصاصات الطبية والصيدلانية، وبلغ الأوج في القرن السادس الهجري/الثاني الميلادي، أي في ذلك العصر الذي جمع الفلاسفة فيه بين الفلسفة والطب، كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز، وابن باجة الذي اشترك مع سفيان الأندلسي بتأليف كتاب (التجارب) وقد استدرك فيه على ابن وافد الطليطلي ما قاله في كتابه عن الأدوية المفردة، وكذلك أبو الوليد بن رشد، الذي تداول الناس كتابه (الكليات) واستعملوه طيلة العصور الوسطى، لأنه يتناول التشريح ووظائف الأعضاء والأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية وحفظ الصحة والعلاج وما إلى ذلك.

لكن زعامة الطب في ذلك العصر التصقت بلواء بني زهر، كأبي مروان بن عبد الملك بن زهر وابنه أبي العلاء بن زهر المتوفى سنة ٥٢٥ هـ/١١٣١ م، ثم أعظمهم جميعاً أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، الذي توفي في مراكش سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م، ونقل جثمانه بعد ذلك إلى إشبيلية حيث دفن في مقبرة بني زهر. وقد كان جراحاً ماهراً، وكان يرى أنه لا ينبغي للطبيب أن يقوم بتحضير الأدوية، فسبق بذلك إلى مفهوم الطب الحديث من فصل الجراحة عن الصيدلة وعن الطب الباطني، وصرف همه كله إلى الطب الباطني، فألف فيه كتاب الاقتصاد، وهو دراسة للطب بشكل عام. وألف كتاب (التيسير) الذي تتجلى فيه شخصيته بكل وضوح، ويُعد خير ما ألف العرب في الطب العملي، فهو يأخذ فيه بما تؤدي إليه الملاحظة المباشرة(٣٨).

أما في الفترة التالية لحكم الموحدين، والتي ظهر خلالها عدد من الدول لمنفصلة في المغرب، كدولة بني مرين في المغرب الأقصى، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، ودولة الحفصيين في تونس، ودولة بني الأحمر في غرناطة، فإن صناعة الطب وفنون الحكمة، قد انعدمت، وكانت تقوم على الخرافة والشعوذة.

ولم يشتهر الأندلسيون والمغاربة في مجال الطب في المغرب والأندلس فحسب، بل اشتهروا

٣٧ ـ أنخل جنثالث بالنثيا ـ تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة حسين مؤنس الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .
٣٨ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٦٦ ـ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيضاً في بلدان المشرق العربي في مصر وسوريا والعراق، فقد بدأوا يظهرون في هذه البلدان كأطباء مشاهير منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وشغلوا أدواراً مهمة ورائعة، كرؤساء لمراكز طبية، وكأطباء في الجيش ومرافقين للحكام، وكمدرسين في كثير من المدارس الطبية المتخصصة وغيرها، نذكر من هؤلاء الطبيب أبي الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي، الذي أصبح طبيب البيمارستان الذي كان يحمل مع المعسكر السلطاني في بغداد، وابنه أبي المجد محمد بن عبد الله الباهلي أفضل الدولة، الذي اعتمد كمسؤول عن إدارة البيمارستان النوري بدمشق، وعمر بن علي البذوخ الذي جمع بين الطب والصيدلة، حيث عرف عنه تحضير أدويته بنفسه، وعبد المنعم الجلياني طبيب صلاح الدين الأيوبي، وابراهيم المغربي وابنه جمال الدين رئيس أطباء مصر والطبيب الخاص للسلطان الناصر محمد بن قلاوون(٣٩).

وقد ظهرت بعض التخصصات في الطب العربي، على الرغم من أن الأطباء كانوا يدرسون الطب والرياضيات والفلسفة والموسيقى والطبيعة. وتبحر بعضهم في فرع واحد، وانقطع للعمل فيه كطبيب متخصص ومؤلف، كما هو الحال في وقتنا الحاضر. ومن هذه التخصصات:

الكحالة وتعني طب العيون، الذي اشتهر فيه على سبيل المثال الكحال عيسى بن علي من تلامذة حنين بن اسحق، وله كتاب (تذكرة الكحالين) وعلي بن عيسى صاحب كتاب (في علاج العين)، وعمار الموصلي مؤلف كتاب (علاج العيون) وفيه تشريح مفصل للعين وأمراضها، وابن عزوز المراكشي صاحب كتاب (أمراض العينين)، وابن وصيف البغدادي وغيرهم.

طب الأسنان، الذي انبرى كثيرون من الأطباء للاشتغال فيه، ومن الرسائل الخاصة بذلك رسالة ما يضر الأسنان وسائر بدن الإنسان للشيخ أحمد الحنفي الحصوني. ومن رسوم الآلات الجراحية الموجودة في كتاب الزهراوي، رسوم آلات لقلع الأضراس وتنظيفها، ونشر الأسنان الزائدة على غيرها، وتشبيك الأضراس بخيوط الفضة والذهب وقطع اللحم الزائد في اللثة.

الجراحون: وهم أكثر الأطباء العرب، ويسمى الجراح أيضاً في بعض الكتب (الجرائحي) وكان الجراح يحتاج لأن يكون عارفاً بالتشريح ومنافع الأعضاء ومواضعها ليتجنب قطع الأعصاب والأوتار وأطراف الفصل أثناء الجراحة(٤٠).

وانتشرت المستشفيات وكثرت في هذه الفترة، كما كان الحال في العصر الأموي واهتمت

٣٩ ـ انظر عن هؤلاء الأطباء كتابنا الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ١٣٣ وما بعدها.

٤٠ ـ انور الرفاعي . المرجع السابق ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدولة فيها اهتماماً بالغاً، وظهرت المستشفيات المتخصصة لأنواع من الأمراض. من هذه المستشفيات نذكر على سبيل المثال:

المستشفيات العسكرية، التي خصصت لأفراد الجيش، تنتقل معه وتحمل أدواتها على البغال والجمال، ويرافق المستشفى ممرضات لتمريض جرحى الحرب الجند. واشتهر من هذه المستشفيات، المستشفى العسكري الخاص بالسلطان محمود السلجوقي، الذي كان يحمل على أربعين جملاً(٤١) ثم اتسع نطاق هذه المستشفيات المحمولة، فكانت تصحب الملوك والسلاطين في تنقلاتهم، كما كانت تصحب الجيوش. وكان السلطان الظاهر برقوق المتوفى ٨٠١ هـ/١٣٩٨ م يصطحب مستشفى محمولاً كبيراً جداً.

ومستشفيات السجون، التي اشتهرت بها بغداد في العصر العباسي، وكذلك المستشفيات المتحركة ولا سيما في الريف والقرى البعيدة عن المدن، وكان يكثر عمل هذه المستشفيات عند انتشار الطواعين والأوبئة.

وهكذا عمت المستشفيات كل مكان في هذه الفترة، منها تلك التي بناها هارون الرشيد والبرامكة والمقتدر العباسي، ومعز الدولة بن بويه، وأحمد بن طولون، وكافور الأخشيدي. وبنى الفاطميون مشفى القشاشين بالقرب من الأزهر بالقاهرة، وبنى الأيوبيون المشفى الناصري بالقاهرة أيضاً. وفي عصر المماليك بنى السلطان قلاوون المنصور البيمارستان الكبير المنصوري فكان من أعظم المستشفيات بالقاهرة. وانتشر مثل هذه المستشفيات في بلاد الشام أيام الأيوبيين والمماليك. أما في الأندلس فلم يرد ذكر صريح للمستشفيات قبل القرن السابع للهجرة(٤٢).

٢ ـ الصيدلة:

الصيدلة علم الأدوية، وهي متصلة بعلم الأعشاب والنبات وبعلم الحيوان والمعادن والكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية وهي تحتاج إلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء. وقد تطورت الصيدلة مع تطور الطب وتقدمه لأن العناية بالطب ارتبطت بالعناية بالصيدلة والكيمياء، لذلك نرى بأن معظم الأطباء في العصور الوسطى كانوا يعرفون تركيب الأدوية وتجهيزها، وكانوا على سعة اطلاع بالشؤون الكيماوية المختلفة. واعتنوا في ذكر تفاصيل دقيقة عن كل نبات، أصله وساقه وورقه وزهره وثمره، وذلك حتى يخلط بين نبات وآخر وآخر ضار، كما

٤١ ـ انظر عن ذلك ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ القفطي ـ إخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٣٦٤ ـ المقري ـ نفح الصليب ج ٢ ص ١٣٣ .

٤٢ ـ عمر فروخ ـ المرجع السابق ص ٢٩٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهتموا بوصف البيئة التي ينمو بها النبات، ويعد هذا الجزء من وصف النبات وصفاً علمياً بحتاً، ثم يذكرون بعد ذلك العقار المفيد في العلاج وكيف يؤخذ ومتى يؤخذ وكيف يضع الدواء وكيف يُتعاطى، ومقدار الجرعة إلى غير ذلك.

من الصيادلة العرب الذين اشتهروا في العصور الوسطى، يمكن أن نذكر جابر بن حيان الكوفي الذي ولد في القرن الثاني الهجري وعاش بين سنتي ١٢٣ - ١٩٥ هـ، ٧٤٠ - ٨١٠ م تهي بلاط هارون الرشيد، وقد تتلمذ على الإمام جعفر الصادق، واتصل عن قرب بالبرامكة، وبخاصة يحيى بن خالد البرمكي وابنيه الفضل وجعفر، وينسب إليه عدد كبير من المؤلفات في الكيمياء، يرجح أن معظمها كتب من قبل تلاميذه واحتراماً له وضعوها باسمه، وكانت كتبه تدرس في أوربة حتى القرن الماضي. ومن أشهر كتبه كتاب الخالص، كتاب الوصية، كتاب البيان والنور، كتاب التراكيب، كتاب الأسرار وعشرات غيرها، ونخص بالذكر الكتاب الذي لا يزال بأصله العربي موجوداً وهو كتاب السموم(٤٣). والكتاب مقسم إلى ستة فصول. الفصل الأول في أوضاع القوى وحالها مع الأدوية المسهلة والسموم القاتلة. الفصل الثاني في أسماء السموم وكيفية استخدامها. والفصل الثالث في ذكر السموم العامة والرابع في علامات السموم المسقاة والحوادث العارضة عنها. والخامس في السموم المركبة والسادس في الانتباه من أخذ السموم قبل تناولها. وقسّم هذه السموم إلى ثلاثة أنواع حيوانية ونباتية وحجرية(٤٤).

اشتهر بعد ابن حيان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، الذي يُعد صيدلياً من الطراز الأول، تأثر بتعاليم جابر بن حيان كثيراً. وقد سلك الرازي في بحوثه وتجاربه مسلكاً علمياً خالصاً، فهو يذكر في كتاب (سر الأسرار) تجاربه مبتدئاً بوصف المواد التي يشتغل بها، ثم الأدوات والآلات التي يستخدمها، ثم الطريقة التي يتبعها في تحضير المركبات، وهذا هو النهج الصحيح في البحث العلمي(٤٥).

وقد خصص ابن سينا قسماً كبيراً من كتابه القانون للأدوية المفردة. فاستقصى عدداً كبيراً من النباتات المعروفة في عصره. وذكر الأجناس المختلفة من النبات، والأنواع المختلفة من الجنس الواحد، وتكلم عن المتشابه وغير المتشابه، وذكر موطن النبات والتربة، التي ينمو بها إن كانت

٤٣ - توجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة التيمورية بمصر.

٤٤ - ضرب مثلاً على كل منها بقوله، الحيوانية تؤخذ من الأفعى ومرارة النمر ولسان السلحفاة والأرنب البحري والعقارب والكلب الكَلب. والنباتية وتؤخذ من الأفيون والبنج الأسود والشيح والكمأة وصمغ الشذاب وعنب الثعلب. والحجرية وتؤخذ من الزنجار والزنبق والزرنيخ والزاج والشبة وبرادة الحديد وبرادة الذهب.

٤٥ - انور الرفاعي . المرجع السابق ص ٦١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملحة أو غير ملحة. ومن خير ما أورده ابن سينا الأسماء المختلفة لبعض النباتات من إفريقية ومحلية، كما فرق بين البستاني أو المنزرع، وبين البري، وأشار إلى اختلاف الرائحة والطعم في النبات، وسبق العالم (كارل متز) الذي قال بأهمية التشخيص بالعصارة سنة ١٩٣٤ .

واعتمد ابن سينا في وصفه للنبات على مصدرين الأول، الطبيعة، فيصف النبات غضاً طرياً، ويتكلم عن طوله وغلظه وورقه وشوكه وزهره وثمره، مما يتفق والعلم الحديث والثاني ما يباع جافاً عند العطارين من أخشاب أو قشور أو أزهار أو ثمار، مما يتفق مع علم النبات الصيدلي.

وخصص في كتابه (الشفاء) عدة أجزاء لدراسة النبات، فتكلم عن الثمار والأشواك والنبات السيفي أو الساحلي أو السنجي، والرملي والجبلي، وتحدث عن قضايا أخرى كالتطعيم وعن الذكر والأنثى في النبات وعن التكاثر(٤٦).

ولعل أشهر الصيادلة العرب كان من الأندلس، وهو عبد الله بن محمد المعروف بابن البيطار، الذي سافر إلى بلاد الإغريق، وأقصى بلاد الروم، وبلاد المغرب من أجل التعرف على أكبر قدر ممكن من الأعشاب الدوائية، وأصبح رئيس العشابين والصيدلانيين بمصر في عهد الأيوبيين. ومن أشهر كتبه في الصيدلة كتاب (الجامع في الأدوية المفردة) الذي يُعد من أكمل ما ألفه العرب في هذا الميدان، وأكثره تفصيلاً، فلقد اعتمد في تأليفه على كتب من سبقه من العرب واليونان وزاد عليهم بـ ٣٠٠ مادة دوائية لم يشر إليها أحد قبله. وله كتاب آخر هو (المغني في الأدوية المفردة) وهو مرتب حسب مداواة الأعضاء، يتحدث فيه عن الأعشاب من وجهة النظر العلاجية فقط.. وقد توفي بمدينة دمشق على حين غرة متأثراً بعقار سام كان يعمل عليه تجاربه، سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م(٤٧).

كذلك اشتهر داود الأنطاكي صاحب كتاب (تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب) فقد تناول فيه ذكر موطن الدواء، ووصف بدقة النباتات الطبية. هذا بالإضافة إلى عدد آخر من العلماء العرب في المشرق والمغرب.

من كل ما تقدم نستنتج أن الطب العربي، كان قمة الطب في العصور الوسطى اعتمد على الطب القديم، وبلغ به أرقى ما يمكن أن يسمح به العصر، وانتقل بحكم هذا الرقي إلى الغرب الأوروبي بجملته علماً وعملاً.

---

٤٦ ـ أنور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٥٩٩ . انظر عن ذلك تفاصيل وافية ابن سينا كتاب الشفا.

٤٧ ـ ابن ابي اصيبعة ـ عيون الأبناء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٣٣ الكتبي فوات الوفيات ج ١ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ ـ المقري نفح الطيب ج ٤ ص ٣٤٨ وانظر كتابنا الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث:

العلوم الطبيعية

ما إن استقرت الدولة العربية الإسلامية، بعد أن امتد سلطانها من مشارف الصين شرقاً، إلى مشارف فرنسا غرباً، حتى أخذ العلماء العرب ينهلون من موارد العلم بمختلف فروعه وفنونه. فأخذوا يترجمون الذخائر العلمية، وينقلون إلى اللغة العربية علوم الاغريق والرومان والفرس والهنود. وقاموا بدراسة هذه الترجمات ونقدها، ثم أخذوا يصلحون ما فيها من أخطاء، ثم يدونون ملاحظاتهم الجديدة عليها، وبذلك أسدوا إلى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات، التي أتت من مجهودات نيوتن وغيره، لأنهم بعد أن فهموا النظريات اليونانية وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة، وضعوا نظريات وبحوث جديدة مبتكرة. وقامت عبقريتهم على نفيهم للخرافات القديمة، وسعة اطلاعهم على علوم الأقدمين، ورحلاتهم الكثيرة للبحث والتنقيب، وتجاربهم في الموازنة بين مختلف مظاهر الطبيعة من جماد وحيوان ونبات وإنسان، ودراسة أوجه النسب والخلاف بينها. وأهم العلوم الطبيعية عندهم:

١ ـ علم الميكانيك:

وسماه العرب علم الحيل، وقسموه إلى قسمين، أحدهما يبحث في آلات الحركات وصناعة الأواني العجيبة، وثانيهما في جر الأثقال بالقوة اليسيرة. ودرسوا في هذا العلم كثيراً من الأدوات الميكانيكية كالرافعة، واللولب، والأسفين، والآلات المفرغة للهواء والرافعة للماء وغيرها.

ومن أقدم العلماء العرب، الذين اشتغلوا بعلم الحيل وأشهرهم بنو موسى بن شاكر.

كان موسى بن شاكر في أول أمره رجلاً بطالاً، يتظاهر بالتقوى ليتخذها ستاراً إلى قطع الطريق والاعتداء على القوافل. ثم أنه تاب واتصل ببلاط المأمون العباسي، وأصبح في جملة المنجمين، ولذلك يعرف بموسى بن شاكر المنجم. وقد كانت وفاته في أيام المأمون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان لموسى بن شاكر المنجم ثلاثة أبناء أكبرهم أبو جعفر محمد المتوفى سنة ٢٥٩ هـ/٧٨٣ م ثم أحمد ثم الحسن. وقد اشتهر هؤلاء ببراعتهم بالرياضيات والهندسة والحيل والحركات والموسيقى وعلم النجوم، كما كانوا رعاة للعلم أنفقوا جانباً كبيراً من ثروتهم العظيمة في جلب كتب العلم من بلاد الروم واستخدموا نفراً من الناقلين منهم حنين بن اسحق وثابت بن قرة وهلال الحمصي في نقل هذه الكتب إلى العربية. وأقام بنو موسى في دارهم ببغداد مرصداً للنجوم.

أما أبو جعفر محمد بن موسى بن شاكر، فكان أجل إخوته في العلم والمعرفة وافر الحظ من الإحاطة بعلم الهندسة وعلم الفلك، عالماً بكتاب الأصول أو الأركان في الهندسة لاقليدس، وبكتاب المجسطي لبطليموس بارعاً في المنطق.

وأما أحمد فكان دون أخيه محمد عامة، ولكنه بلغ في صناعة الحيل من البراعة ما لم يبلغه أخوه محمد. وكان الحسن أصغر من أخويه، وكان منفرداً بعلم الهندسة(١).

ألف هؤلاء الإخوة عدداً من الكتب، منها كتاب يحتوي على قياسات المساحات المسطحة والمستديرة. ويعرف في أوروبا باسم كتاب الإخوة الثلاثة في الهندسة بعد أن ترجمه جيرار الأكويني. وكتاب (حيل بني موسى) جمعوا فيه علم الميكانيك القديم وتجاربهم الخاصة، وهو يحوي على مئة تركيب ميكانيكي، عشرون منها ذات قيمة علمية. وكتاب (القرسطون) وكتاب الآلات الحربية.

وكان اهتمام أحمد منصباً على الاختراعات العملية ذات الفوائد المنزلية ولعب الأطفال والأثقال وغيرها، وقد جاء وصفها في كتاب فن الآلات الروحية. من ذلك اختراعه لآلات تمتلئ بالسوائل وتفرغها تلقائياً، وقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائياً ويصب منها الزيت ذاتياً ولا تستطيع الرياح اطفاءها، ونافورات تندفع مياهها في صور شتى(٢).

ومن الأبحاث العربية الهامة، والتي دخلت عند العلماء العرب ضمن بحوث علم الحيل، حساب الوزن النوعي، فاخترع محمد بن حسن المعروف بالخازن والذي نبغ في أوائل القرن الرابع للهجرة، اختراع آلة لمعرفة الوزن النوعي لأي سائل، وكان البيروني يستخرج الثقل النوعي بوزن الجسم في الهواء أولاً ثم بوزنه في الماء بعد أن يدخله في وعاء مخروطي الشكل مثقوب

١ ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

٢ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج٢ ص ٥٠٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على علو معين، ثم يزن الماء الذي أزاحه الجسم، فمن حجم الماءالمزاح كان يعرف حجم الجسم، ومن قسمة وزن الجسم في الهواء على وزن الماء المزاح يحصل على الثقل النوعي للجسم الموزون. واستعمل الرازي ما سماه بالميزان الطبيعي ووصفه في كتابه محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي. ووصف الخازن في كتابه ميزان الحكمة عدداً من الموازين التي استعملها العرب في تجاربهم.

ولعل فكرة الأوزان النوعية، هي التي حدت بالعالم العربي الأندلسي عباس ابن فرناس، الذي عاش في عصر الإمارة الأموية بالأندلس خلال القرن الثالث الهجري إلى التفكير بالطيران، فقد احتال في تطيير جسمانه، فكسا نفسه بالريش، ومد لنفسه جناحين، ثم قفز من منارة مئذنة قرطبة العالية في الجو مسافة بعيدة، ولكنه لم يجعل لنفسه ذنباً يحميه من هبوطه، بأن يجعل شيئاً من الموازنة بين مقدمة جسمه ومؤخرته. فوقع على مؤخرته وقوعاً شديداً ومات. كما قام بصناعة نوع من المؤقتات على هيئة لم تكن معروفة، وهي التي تقوم مقام الساعة في وقتنا. كما صنع نوعاً من الزجاج الحجري الذي يشبه الكريستال اليوم(٣).

وكان أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت المتوفى سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٤ م من أهل الأندلس، ثم سكن مصر، وكان بارعاً في عدد من فنون العلم والأدب. وقد وقعت معه حادثة طريفة ومأساوية في الوقت نفسه. فكان قد وصل إلى مدينة الاسكندرية مركب محمل بالنحاس، فاتفق أن غرق على مقربة منها، وكانت الحاجة إلى النحاس ملحة، والزمن زمن الحروب الصليبية، فقال أبو الصلت للأفضل حاكم الاسكندرية، إنه قادر على رفع المركب من قاع البحر. فأعد الأفضل كل ما طلبه أبو الصلت.

بنى أبو الصلت مركباً عظيماً وجعله في البحر على موازاة المركب الغارق، ثم ربط المركب الغارق بحبال من الحرير مبرومة، وجعل أطراف تلك الحبال على دواليب، ثم أمر الرجال بإدارة تلك الدواليب. بدأ المركب يرتفع من قاع البحر شيئاً فشيئاً حتى حاذى سطح الماء، فلما تابع أبو الصلت رفع المركب إلى ما فوق سطح الماء، انقطعت الحبال وغاص المركب ثانية.

إن عمل أبي الصلت واستخدامه البكرات المتعددة، يدلان على ما كان قد وصل إليه علم الحيل في أيام أبي الصلت، كما أن في ذلك دلالة على براعة أبي الصلت في علم الحيل من الناحيتين النظرية والعملية، ولكن غاب عنه مبدأ أرشميدس، وذلك أن ثقل المركب، بعد أن ارتفع

٣ ـ انظر نفح الطيب ج ٣ طبعة صادر بيروت ص ٣٧٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فوق سطح الماء قد أصبح أكثر مما كان والمركب تحت سطح الماء. فكان يجب عليه إما أن يفرغ شيئاً من محمول المركب وإما أن يزيد عدد الحبال.

وقد سجنه حاكم الاسكندرية بعد هذه الحادثة مدة عشرين عاماً، بعد أن توسط له بعض المصلحين(٤).

وإذا كان الصينيون قد اكتشفوا البوصلة، فإن العرب هم الذين تمكنوا من استخدامها في الملاحة والأسفار، بعكس الصينيين الذين استخدموها لفترة طويلة في أمور الكهانة والخرافة.

أما الرقاص(٥) فالعرب هم الذين اخترعوه، وكان المخترع أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري المتوفى سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م. ثم جاء بعده كمال الدين موسى بن يونس بن محمد العقيلي الموصلي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤٢ م، فعرف أشياء كثيرة من قوانين تذبذب الرقاص. فقد كان الفلكيون يستخدمونه لحساب الفترات الزمنية في أثناء رصد النجوم.

وبعد أن اختراع العرب الرقاص، ووضعوه موضع الانتفاع العملي بستمئة وخمسين عاماً، وبعد أن استخرجوا شيئاً من قوانينه بأربعمئة سنة، جاء غاليليو الإيطالي المتوفى سنة ١٦٢٤ م، وتوسع في درس الموضوع ووضع أكثر القوانين، التي نعرفها اليوم عن الرقاص، ثم حسبها حساباً رياضياً.

وكان اختراع الرقاص أمراً لا تقدر قيمته ونتائجه بثمن، فلولاه لما وصلت العلوم الفلكية إلى المنزلة العالية، التي هي عليها اليوم. والأوروبيون لم يعرفوا الرقاص إلا في القرن السابع عشر للميلاد(٦).

وكان علي بن أحمد الآمدي المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ/١٣١٣ م بقليل، يتجر في الكتب، وقد فقد نظره في أواخر أيامه. وكانت له قوة عجيبة في اللمس، قالوا، كان يمر بيده على صفحة الكتاب، فيعرف عدد الأسطر فيها، ويشعر بالخطوط المختلفة فيذكر أن الخط من السطر الفلاني إلى السطر الفلاني مختلف عن غيره في الحجم أو في النوع، ويفرق بين الكلام المكتوب بالحبر الأحمر والكلام المكتوب بالحبر الأسود.

---

٤ ـ انظر عن ذلك كتابنا، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي، طبعة دمشق، دار شما ١٩٩٥ ص ١٩٩ ـ امية بن ابي الصلت ـ الرسالة المصرية ـ الطبعة الثانية مصر ١٩٧٢ .

٥ ـ يقصد به هنا رقاص الساعة.

٦ ـ قدري حافظ طوقان ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك طبعة ٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧ كارلو نلينو ـ علم الفلك وتطوره عند العرب ص ٣٠٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يفتل الفتيلة الرفيعة الخفيفة من الورق ويضع منها حرفاً أو أكثر من حروف الهجاء للدلالة على ثمن الكتاب بحساب الجمل، ثم يلصق الورقة المفتولة على طرف جلد الكتاب، فإذا أراد معرفة ثمن كتاب ما مس بأصابعه ذلك الموضع، الذي ألصق عليه الورقة المفتولة، فعرف ثمن الكتاب. ولعل علي بن أحمد الآمدي، أول من فكر في إيجاد تلك الطريقة النافرة في الخط، ليتمكن الذين فقدوا بصرهم بوساطتها من القراءة(٧).

٢ ـ علم الفيزياء:

على الرغم من أن العرب بحثوا في جميع العلوم الفيزيائية، فإن أبحاثهم لم تصل إلينا جميعها، لأن معظمها ترجم إلى اليونانية واللاتينية، وأهملت أسماء المؤلفين العرب، ولولا أن الصفة العلمية، والروح التي تسود بعض منصفي العلماء الأوروبيين المعاصرين من البحث عن الحقيقة وإسناد الأمور إلى أصحابها، لبقينا نجهل أن أكثر هذه النظريات كان من وضع العرب، وأهم أبحاث في هذا المضمار.

الضوء، ويسميه العرب علم البصريات أو علم المناظر. وقد اهتم به العرب منذ بدء اهتمامهم بالعلوم والفلسفة. وليس من المبالغة القول مع القائلين بأنه لولا البصريات ونتائج العرب فيها لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب فيما بعد. ولعل العالم المرموق والرائد في هذا العلم هو ابن الهيثم أبو علي بن محمد حسن البصري، الذي ظهر بمدينة البصرة، ونبغ في علم الحيل والبصريات.. وسمع عن النيل بمصر وفيضانه، ففكر بطريقة لخزن مائه، فسير إليه الحاكم بأمر الله جماعة أحضرته إلى مصر، فأخذ يدرس أحوال النيل، وسار مع مجراه حتى وصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل، فعاينه وباشره واختبره، فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده، وتحقق الخطأ عما وعد به، وعاد خجلاً واعتذر فقبل الحاكم اعتذاره، وخشي ابن الهيثم انتقام الحاكم فتظاهر بالجنون، وبقي على حاله حتى مات الحاكم، فأظهر العقل وعاد إلى ما كان من البحث والدراسة، وأخذ بتأليف كتبه التي أهمها كتاب (المناظر) وهو كتاب علمي يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنتاج، مبوباً تبويباً علمياً منطقياً، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، وبقي الكتاب الوحيد الذي يقره الباحثون في هذا العلم طوال العصور الوسطى.

ويقع هذا الكتاب في سبعة مجلدات، تبحث في علم المناظر، وفي تشريح العين ورسمها

٧ ـ الصفدي ـ نكت الهميان ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأسماء أقسامها، ولعله أول من وضع لأقسامها أسماء عربية ترجمت إلى اللغات الأجنبية، لا تزال تعرف بها إلى الآن مثل الشبكية والقرنية والسائل الزجاجي والسائل المائي. ويبحث الكتاب في كل جزء من أجزاء العين وفي كيفية النظر في إلى الأشياء بالعينين في آن واحد، وكيف تسير الأشعة من النور، من الجسم المرئي إلى العينين ووقوع ذلك على الشبكية في محلين متماثلين من العينين، ثم يبحث في العدسات وقوى تكبيرها، وينتقل بعد ذلك إلى بحث النظريات الضوئية المختلفة إلى غير ذلك من أمور(٨).

ولابن سينا في البصريات أشياء أصاب فيها، فهو يقول بالورود لا بالشعاع قال: "وقد غَلِط من ظن أن الإبصار يكون بخروج شيء من العين إلى المبصرات يلاقيها، وله نظرية هي: إذا كان جسمان متساويان في الحجم، فإن الأبعد منها يُرى في رأي العين أصغر(٩).

في القرن السادس الهجري لمع نجم كمال الدين الفارسي، فاستهواه ما كتبه ابن الهيثم في الضوء فدرسه، وتابع الدراسة والتجربة وتسجيل ما حصل عليه من نتائج هي تتمة لأعمال ابن الهيثم، فألف كتاب سماه (تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر).

واشتهر تلميذه قطب الدين الشيرازي المتوفى سنة ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م بشرح كتاب المناظر لابن الهيثم، فشرحه واختصر من بعض الأماكن اختصاراً لا يفقده شيئاً من معانيه ولا من قيمته، ثم أضاف إليه دروساً مبتكرة لم يذكرها ابن الهيثم، من ذلك انعكاس الضوء وانكساره عند ملاقاته لجسم كروي ومنها تعليله لقوس قزح، الذي يحدث حينما يكون الهواء مشبعاً بالرطوبة ولا يكاد يحدث إلا في طرفي النهار وفي الجهة المقابلة لموضع الشمس.

وللرازي ملاحظات صائبة في الضوء والصوت، فهو يرفض الشعاع في البصر ويقبل الورود، ثم يناقش ذلك مناقشة طويلة في كتابه (المباحث المشرقية) وهو يقول، إن الألوان غير موجودة في الأجسام إذا كانت مظلمة، والدليل على ذلك أننا لا نرى الأجسام ملونة إذا كانت تلك الأجسام في الظلمة. وللصوت عنده سببان، أحدهما قريب والآخر بعيد. فالسبب القريب تموج الهواء، وهو حالة شبيهة بتموج الماء تحدث بالتداول. وأما السبب البعيد فهو من وجهين، إحساس عنيف وهو القرع أو تفريق عنيف وهو القلع(١٠).

٨ ـ انظر عنه دائرة المعارف البريطانية تحت اسم ابن الهيثم.

٩ ـ تسع رسائل لابن سينا، مطبعة الجوائب، قسطنطينية ١٢٩٨ هـ ص ١٧ .

١٠ ـ الرازي ـ المباحث المشرقية ج ١ طبعة حيدر اباد الركن ص ٣٠١ وج ٢ ص ٢٨٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ الصوت. بحث العرب في منشأ الصوت وقوته بفعل اهتمامهم في الآلات الموسيقية والنقر عليها وأنواع الأنغام. وقسم العرب الأصوات إلى أنواع منها، الجهير والخفيف، ومنها الحاد والغليظ، وشرحوا العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت الذي يحدث من جهة أخرى، وعللوا الصدى، وشرحوا سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد، لأن البرق يُرى قبل أن يسمع الرعد لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ وذلك يتوقف على تموج الهواء. وذهاب النظر أي سير النور أسرع من وصول الصوت.

وعرف إخوان الصفا الصوت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بأنه قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام، وذلك أن الهواء لشدة لطافته وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها، فإذا صدم جسم جسماً آخر، انسل ذلك الهواء من بينها وتدافع وتموج إلى جميع الجهات، وحدث من حركته شكل كروي واتسع. وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل. فمن كان حاضراً من الناس وسائر الحيوانات، ممن له إذن بالقرب من ذلك المكان، فبتموج ذلك الهواء بحركته، يدخل في أذنيه إلى صماخيه في مؤخر الدماغ، ويتموج أيضاً ذلك الهواء الذي هناك، فتحس عند ذلك القوة السامعة بتلك الحركة وذلك التغيير(١١).

١١ ـ رسائل إخوان الصفا ج١ ص ١٣٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع:

العلوم الرياضية

تشمل الرياضيات الحساب والجبر والهندسة والمثلثات وعلم الفلك وجميعها تحتاج إلى نضوج عقلي وقوة في التجريد. ففي الفترة التي سبقت الإسلام، لم يشتهر العرب بأي نوع من هذه العلوم. فقد خلطوا على سبيل المثال التنجيم بعلم النجوم. وقد وصلنا كثير من القصص التي تبين ضعف محاكمتهم الرياضية. وفي صدر الإسلام لم يهتموا كثيراً بالرياضيات، ذلك لأنهم تركوا أمر الجباية والدواوين للموالي والذميين، وحينما قام عبد الملك بن مروان(١) بتعريب الدواوين، بدأ العرب يهتمون بتعلم الكتابة الرسمية والحساب، واندفعوا وراء ذلك بنشاط، وما لبثوا أن مهدوا في هذه العلوم وغيرها.

١ ـ الحساب: اطلع العرب على حساب الهنود، وأخذوا عنهم نظام الترقيم، وكان لدى الهنود أشكال مختلفة للأرقام، فاختاروا سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية (١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤) وهي المستعملة في أغلب البلاد العربية. وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية(٢) (4 - 3 - 2 - 1) وهي المستعملة في بلاد المغرب العربي، وكانت سائدة في الأندلس العربية، ومنها انتقلت إلى أوروبا وتعرف هناك باسم الأرقام العربية.

ويرجع الفضل في نقل هذه الأرقام واستعمالها إلى العالم العربي محمد بن موسى الخورازمي، وهو أول من أوردها في مؤلفاته وكتبه في الحساب، وكان كتابه في الحساب الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة، وقد نقل إلى اللاتينية، وظل مرجعاً للعلماء المهتمين في الحساب، كما بقي علم الحساب نفسه قروناً معروفاً باسم الغوريثمي نسبة إلى عالمنا الخوارزمي.

وقسم العرب الحساب العملي إلى قسمين، الغباري وهو الحساب الذي يحتاج استخدامه إلى

١ ـ عبد الملك بن مروان هو احد اشهر خلفاء الدولة الأموية حكم من سنة ٦٥ ـ ٨٦ هـ.

٢ ـ اما الأصل في تسميتها غبارية، فهو ان الهنود كانوا ينثرون غباراً على لوح من الخشب ويرسمون عليه الأرقام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدوات كالورق والقلم، والهوائي وهو الحساب الذهني. وأوجد العرب رقم الصفر، وكان الهنود يستعملون (سونيا) أي الفراغ لتدل على معنى الصفر، ثم استعمل العرب رقماً للسفر، وإن أول كتابة عربية ظهر فيها الصفر مرسوماً نقطة كما نرسمه اليوم، كان سنة ٢٧٤ هـ/٨٧٤ م واستعمله الهنود بعد ذلك بعامين. وقد سهل استعمال الصفر العمليات الحسابية البسيطة والمركبة، إذ أصبح الصفر لأول مرة يسمى (عدما) كما فهم الأوروبيون في العصور الوسطى خطأ، فسموه (لا شيء) ولكنه كمية ما، يطرأ من جرائها على الأعداد تبدل أساسي، فكل عدد أساسي مضروب بصفر ناتجه صفر، وتقسيم عدد يتناهى إلى السفر. واقتبس اسم الصفر في اللغات الأوروبية فصار (Zero) وتذكر المصادر الغربية، أن أول من دعا لاستخدام الأرقام العربية من الأوروبيين هو ليوناردو سنة ١٢٠٢ م، فظهرت بعد ذلك في سويسرا والنمسا وفرنسا وألمانيا واسكتلندا وفي انكلترا(٣).

ومن مزايا الأرقام العربية أو الهندية، أنها تقوم على النظام العشري وعلى اساس القيم الوضعية، بحيث يكون للرقم قيمتان، قيمة في نفسه، وقيمة بالنسبة إلى المنزلة التي يقع فيها.

يقول الخوارزمي، الحساب العربي أو الهندي قوامه تسع صور يكتفى بها للدلالة على الأعداد إلى ما لا نهاية له، وأسماء مراتبها، أربعة وهي الأحاد والعشرات والمئات والآلاف، فالواحد يقوم مقام العشرة، ومقام المئة، ومقام الألف، ومقام العشرين، ومقام المئتين، ومقام الألفين إلى غير ذلك.

ومما لا شك فيه أن نظام الصفر من المخترعات الأساسية والرئيسة ذات الفوائد الكبيرة التي توصل إليها العقل البشري، فلم تنحصر مزاياه في تسهيل الترقيم وحده، بل تعدته إلى تسهيل جميع أعمال الحساب، ولولاه لما رأينا سهولة في الأعمال الحسابية، ولاحتاج المرء إلى استعمال طرق صعبة ومعقدة لإجراء عمليتي الضرب والقسمة.

ومن العلماء العرب الذين اهتموا بدراسة الأعداد والحساب، العالم الكندي المتوفى سنة ٢٥٢ هـ/٨٦٦ م، الذي قال، إن الفلسفة نفسها لا تفهم إلا بالرياضيات. والرياضيات تكون بالبراهين لا بالاقتناع الشخصي ولا بالظن. والأعداد متناهية في نفسها، فكل عدد مهما كان كبيراً متناه، ولكن سلسلة الأعداد غير متناهية، لأن بإمكاننا أن نزيد كل عدد بلا نهاية. أما المعدودات فهي متناهية لأنها أجسام.

---

٣ ـ انظر انور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٦٥٠ ـ ٦٥١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك إخوان الصفا، الذين قالوا، بأن الأعداد قسمان: عادٌ (وهو الواحد) ومعدودات (وهي سائر الأعداد أي باقيها)، وكل عدد (ما عدا الواحد والاثنين) ينشأ بزياد واحد على العدد الذي يتقدمه، فالأربعة ثلاثة يضاف إليها واحد، والثلاثة إثنان يضاف إليها واحد. أما العدد إثنان فإنه واحد مكرر مرتين، فالإثنان إذن أول الأعداد. وكل عدد سواء أكان صحيحاً أو كسراً فإنه وحدة قائمة بنفسها: ١/٤ ، ٧ ، ٦٤٩٠٥١ إلى آخره، غير أن الواحد، وحدة حقيقية لا يطرح منها شيء ولا هي تنقسم. فالواحد أصل الأعداد ومنشأها، تأتي جميعها منه وهو مخالف لها، وتنشأ الأعداد من الواحد صعوداً: ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ وهبوطاً ١ ١/٢ ١/٤ ١/٨ ١/١٦ إلى آخره(٤).

ومن العلماء العرب أيضاً في هذا المجال أبو بكر محمد بن الحسن الكوفي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م، الذي اهتم بالحساب والجبر، واشتهر في حل المسائل أكثر من الاتيان بأشياء جديدة. وكان يستخدم الطريقة اليونانية (الحسبان بالأحرف) في حل المسائل لا الطريقة الهندية (الحسبان بالأرقام). وابن البناء المراكشي المتوفى ٧٢١ هـ/١٣٢١ م، الذي برع في الجانب العملي من الحساب تعليماً وتأليفاً، وكان لا يرى لفقه الحساب (خواص الأعداد) فائدة إلا لأهل الاختصاص. وله كتاب مفصل مشهور في الحساب اسمه (الحصار الصغير) شرحه في كتاب سماه (رفع الحجاب). وكان ابن البناء يستخدم الأرقام الهندية الغبارية. غير أن كثرة البراهين في كتبه تجعلها صعبة على المبتدئين. ويمكن أن نذكر في هذا المجال أيضاً غياث الدين الكاشي المتوفى سنة ٨٤٠ هـ/١٤٣٧ م صاحب كتاب (مفتاح الحساب). وقد بحث الكاشي في معظم أبواب العلوم الرياضية في الأرقام والأعداد والحساب والجبر والمساحة والأنساب (المثلثات) والفلك. وبراعة الكاشي تتجسد في التوسع في استخدام الأرقام الهندية وفي التبسط على مراتب العدد والتفصيل في خطط الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور العادية(٥).

٢ - علم الجبر: كان العرب أول من استخدم كلمة جبر للدلالة على العلم المعروف بهذا الاسم، وما تزال الكلمة (Algebra) مستعملة في اللغات الأجنبية حتى الآن.. وعلى الرغم من معرفة اليونان وغيرهم بعض معادلات الجبر، فإنه يعود للعرب أمر تنظيم هذا العلم والإرتقاء به إلى مصاف العلوم المنظمة. ويعد الخوارزمي أول من ألف فيه بطريقة منتظمة، بعد أن قربه الخليفة المأمون، فألف كتابه المعروف (الجبر والمقابلة) الذي اعتبر المصدر الذي اعتمد عليه الأوروبيون، وكان أثره في تقدم علم الجبر لدى الغربيين، كما كان كتابه في الحساب، بحيث يمكن أن يقال إن الخوارزمي واضع علمي الحساب والجبر.

٤ - عبد الحليم منتصر - اثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص ١٩٥ - ١٩٦ .

٥ - عمر فروخ - المرجع السابق. ص ١٣٦ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومما يدل على عبقرية الخوارزمي، أن علم الجبر لم يحظ بعده في نحو ثلاثة قرون خطوة واسعة. حتى جاء عمر الخيام المتوفى سنة ٥١٥ هـ/١١٢١ م الذي اشتهر كشاعر، ولكنه كان من جهة أخرى عالماً ذو عقل منظم، فهو من أوائل الذين حاولوا تصنيف المعادلات بحسب درجاتها وبحسب عدد الحدود التي فيها. واستطاع حل المعادلات من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط، وهذا أرقى ما وصل إليه العرب في الجبر،بل من أرقى ما وصل إليه علماء الرياضيات في حل المعادلات في الوقت الحاضر، لأننا نجهل اليوم كيفية حل المعادلة من الدرجة الخامسة وما فوقها بطريقة عامة، ومما سبق العرب إليه، أنهم اكتشفوا النظرية المشهورة القائلة، إن مجموع عددين مكعبين لا يكون عدداً مكعباً، مثال ذلك، إذا أخذت عدداً فضربته في نفسه في ثلاث مرات ٢ * ٢ * ٢ = ٨ ثم أخذت عدداً آخر فضربته أيضاً بنفسه مثال ذلك ٣ * ٣ * ٣ = ٢٧ فإن مجموع المكعبين (٨ + ٢٧ = ٣٥) لا يكون عدداً مكعباً(٦).

٣ ـ الهندسة: من أعظم أفضال العرب على الهندسة، أنهم اهتموا بها حينما أهملتها الشعوب كلها، ثم حفظوها من الضياع وناولوها للأوروبيين في زمن مبكر جداً. فلقد أخذ الأوربيون الهندسة اليونانية عن العرب لا عن اليونان، ثم نقلوها إلى اللغة اللاتينية، وظلوا يتدارسونها كما عرفوها من العرب إلى أواخر القرن السادس عشر. وبرع العرب في قضايا الهندسة، وشرحوها. وعرفوا تسطيح الكرة، وألفوا فيه. وكان اهتمامهم بالناحية العملية من الهندسة أكثر من اهتمامهم بالناحية النظرية، تشهد بذلك المباني التي شيدت في المشرق والمغرب(٧).

فقد اهتم عدد من العلماء العرب بدراسة الأصول لأقليدس، وألفوا كتباً على مستواه، وأدخل بعضهم تمارين لم يعرفها القدماء. ومنهم من ابتكر حلولاً لبعض المسائل الهندسية مغايرة للحلول، التي عرفها القدماء. ومنهم من توصل إلى حل ما لم يتوصل إليه هؤلاء، ومنهم من أبرز الصلة وأكد التتابع بين النظريات والتمارين الهندسية، مما لم يلحظه القدماء من أمثال إقليدس. وللعلماء العرب مؤلفات كثيرة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية، وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية.

وقد ألف العرب في الهندسة كما فعلوا في غيرها. فابن الهيثم ألف كتاب (حل شكوك إقليدس) برهن فيه على أنه من كبار العلماء في الرياضيات البحتة بكل ما تحمل من معنى وأبلغ ما تصل إليه من حدود.

---

٦ ـ حنا جرداق ـ مآثر العرب في الرياضيات والفلك ص ١١ ـ ١٢ .

٧ ـ عمر فروخ، المرجع السابق ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي مؤلفات البيروني نظريات ودعاوى هندسية وطرق البرهنة عليها، وهي طرق جديدة، فيها ابتكار وعمق، وتختلف عما ألفه رياضيو اليونان مثل رسالته استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني، وفيها برهان جديد لمساحة المثلث بدلالة أضلاعه، وهو غير البرهان الذي أتى به هيرون من رياضيي جامعة الاسكندرية القديمة.

وتنبه نصير الدين الطوسي إلى نقص إقليدس في المتوازيات، وحاول البرهنة عليها في كتاب تحرير أصول أقليدس.

وقسم العرب الهندسة إلى نوعين، عقلية وحسية، فالحسية معرفة المقادير، وهي ما يرى بالبصر ويدرك باللمس، والعقلية ما يعرف ويفهم. والنظر في الهندسة الحسية يؤدي إلى الحذق في الصنائع كلها وبخاصة المساحة، وهي صناعة يحتاج إليها العمال والكتاب وأصحاب العقارات والطياع. أما النظر في الهندسة العقلية، فإنه يؤدي إلى الحذق في الصنائع، لأن هذا العلم هو أحد الأبواب التي تؤدي إلى معرفة جوهر النفس، التي هي جذر العلوم وعنصر الحكمة(٨).

٤ ـ **علم المثلثات**: كانت المثلثات كالجبر علماً بحتاً، فاليونان لم يهتموا بعلم المثلثات لذاته، بل لأنه يساعدهم في علم الفلك، والهنود لم يتقدموا في هذا العلم إلا تقدماً بسيطاً. ولكن العرب هم أول من نظم هذا كله علماً قائماً بذاته مستقلاً عن علم الفلك، وكان الفضل في ذلك إلى أبي الوفاء البوزنجاني ونصير الدين الطوسي.

والعرب هم أول من ألف فيه بطريقة علمية منتظمة. وكان لذلك أهمية في تسهيل حلول كثير من المسائل الرياضية(٩).

من أجل ذلك عُرف علم المثلثات عند العرب بعلم الأنساب، لأنه يقوم على الأوجه المختلفة الناشئة من النسبة بين أضلاع المثلث.

٥ ـ **علم الفلك (الهيئة)**: عرف العلماء العرب علم الفلك ولهم فيه رصدات وقياسات كثيرة، وربطوا بينه وبين العلوم الرياضية، ومنهم من ربط بين حركة الأجرام السماوية وحوادث العالم والناس من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم، مما يعرف بعلم التنجيم، فقد كان الخلفاء يستشيرون المنجمين، فينظرون في حالة الفلك واقترانات الكواكب، ثم يشيرون بمقتضى ما يرون من ذلك، وكذلك كانوا يستشارون في علاج بعض الأمراض.

٨ ـ عبد الحليم منتصر ـ المرجع السابق ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

٩ ـ عمر فروخ ـ المرجع السابق ص ١٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أن الفلك كعلم كان ضرورياً لبعض الأمور الدينية، كأوقات الصلاة حسب موقع البلد ومعرفة الموقع الجغرافي وحركة الشمس في البروج، وأحوال الشفق وهلال رمضان، وتعيين سمت القبلة. وقد أدى ذلك وغيره إلى دراسة كتب الأقدمين في الفلك والتنجيم، فدرسوا أعمال الإغريق، وبخاصة المجسطي لبطليموس، ثم علوم الكلدان والسريان والفرس والهنود، وأتيح لكثير من العلماء العرب، أن يطيعوا ابتكارات هامة في الفلك، وأن يقوموا برصدات على أعظم جانب من الأهمية. وأول كتاب ترجم في علم الفلك، كان من اليونانية إلى العربية في عصر الأمويين، وهو كتاب (مفتاح النجوم) لهرمس الحكيم.

والحقيقة فإنه لم يكن للعرب اهتمام برصد الكواكب والنجوم، ولا بحساب حركاتها على منهج علمي وقواعد ثابتة حتى جاء العصر العباسي، حيث اتسعت حركة النقل. ففي أيام المنصور نقل العرب كتاب (السند هند) وكتاب (المجسطي) في الأغلب، وهو الذي أمر بترجمة كتاب في حركات النجوم ترجمة محمد بن ابراهيم الفزاري وسماه (السند هند الكبير) وبقي معمولاً به إلى أيام المأمون واختصره الخوارزمي، وصنع منه زيجة المشهور.

وكان المأمون خليفة عالماً ومحباً للعلم، عرف أن القدماء قاسوا محيط الأرض أقيسة مختلفة، فأراد أن يعرف القياس الدقيق. فأمر فريقين من المهندسين، بأن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين ثم يقيسا درجة واحدة من محيط الأرض. واختار كل فريق بقعة واسعة مستوية، قيل في صحراء تدمر وصحراء التركستان. وكانت النتيجة ستة وثلاثين ميلاً ونصف(١٠).

واشتغل الخوارزمي بالفلك وضع زيجاً بناه على السند هند، وجمع فيه مذاهب الهند والفرس، وبيّن مذهب بطليموس. وقد كان لهذا الزيج أثر كبير في الشرق والغرب.

ومن كبار علماء الفلك محمد بن جابر بن سنان الحراني المعروف البتاني. ولد في بتان قرب حران نحو سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م، وعاش معظم حياته في الرقة على نهر الفرات. وفي الرقة قام بإرصاده، وكانت وفاته سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م وصنع البتاني زيجاً أثبت فيه الكواكب الثابتة، وجعله في نسختين، الثانية هي الأفضل والأدق. واهتم البتاني بكتاب المجسطي لبطليموس، واشتغل بأرصاد القدماء(١١).

ومن الذين اهتموا بصور السماء (مجاميع النجوم) عبد الرحمن الصوفي الرازي المتوفى سنة

١٠ ـ انور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٦٦٠ وما بعدها.

١١ ـ انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٧٩ وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٥٠٦ الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٢٨٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣٧٦ هـ/٩٨٦ م. وله كتاب (الكواكب الثابتة) أو (صور الكواكب الثابتة) وهو أحسن الكتب التي وضعت في الفلك. وقد ذكر الصوفي في هذا الكتاب جميع صور السماء ورسمها بالألوان، وشرح أشكالها وبيّن خصائصها، وضبط كثيراً من مقاديرها.

وكان الفيلسوف ابن باجة الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م بارعاً في العلوم الرياضية وفي الفلك، فقد عرف وقت كسوف البدر(١٢).

ودرس ابن رشد المتوفى ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م كَلَفَ الشمس وكتب فيه. كما عرف بواسطة الحساب الفلكي وقت عبور عطارد على قرص الشمس، فرصده وشاهده بقعة سوداء على قرصها في الوقت الذي كان قد عينه بالحساب، وهذا الأمر لا يتصدى له سوى الراسخين في الرياضيات الفلكية(١٣).

ولا بد أن تذكر أن عدداً كبيراً من العلماء العرب، لم يكونوا من المؤمنين بالتنجيم، كالكندي والفارابي وابن سينا وابن حزم وابن طفيل وغيرهم. ويذهب ابن سينا إلى أن قول المنجمين بأثر الكواكب على الناس من خير أو شر، إنما هو قول هراء، وقد أخذوه من غير برهان ولا قياس. وكذلك لم يكن الكندي مؤمناً بأثر الكواكب في أحوال الناس، ولا يقول بما يقول به المنجمون من التنبؤات القائمة على حركات الكواكب، ومع ذلك فقد اهتم بعلم الفلك، وله آراء جريئة في نشأة الحياة وقال: إن القول بأن بعض الكواكب يجلب السعادة، وأن بعضها يجلب النحس، ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لا تستحق إلا الشك والارتياب.

ويقول ابن حزم، ليس للنجوم تأثير في أعمالنا، ولا لها عقل تدبرنا به إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعياً، كتدبير الغذاء لنا وتدبير الماء والهواء، ونحو أثرها في المد والجزر، وتأثير المشمس في عكس الحر، وتصعيد الرطوبات. كما أن النجوم لا تدل على الحوادث المقبلة. ويقول ابن طفيل بوحدة القوانين والأنظمة الكونية، وشمولها فيما يسيطر على النباتات والماء والهواء والجماد والحيوان والإنسان وعلى سائر الموجودات، وأن العالم بجملته كشيء واحد يتحرك في دائرة من القوانين(١٤).

وقد تعددت مراكز الرصد وتفرقت على مختلف البلدان في الوطن العربي، فقد بني أول

١٢ ـ المقري ـ نفح الطيب ج ٧ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

١٣ ـ حنا جرادق ـ مآثر العرب في الرياضيات ص ٢٢ .

١٤ ـ عبد الحليم منتصر المرجع السابق ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرصد في مدينة دمشق في العصر الأموي، وبقي هذا المرصد وحيداً حتى عصر المأمون، فأمر باتخاذ المراصد الفلكية وقدم لها ما تحتاج من أموال لبنائها ولتجهيزها بأدوات الرصد، فبنى مرصداً في جبل قاسيون شمال دمشق، وبنى مرصداً في الشماسية في بغداد، وبنى بنو موسى مرصداً آخر خاصاً لهم على طرف الجسر في بغداد(١٥).

وأنشأ الفاطميون المرصد الحاكمي على جبل المقطم بالقاهرة، كما يُعد مرصد المراغة الذي بناه نصير الدين الطوسي من أشهر المراصد وأكبرها، فقد اشتهر بآلاته الدقيقة وبراعة المشتغلين والعاملين به، وهناك مرصد ابن الشاطر في الشام، وكذلك قامت المراصد في الأندلس. وقد عمل في هذه المراصد عدد من العلماء المشاهير، كأبي اسحق النقاش المعروف بالزرقالي المتوفى سنة ٤٩٣ هـ/١١٩٩ م. وكنتيجة لأرصاده ألف كتاب (الصحيفة الزيجية) يبين فيه استعمال الاسطرلاب على منهاج جديد بأسلوب سهل، ويبدو أنه أدخل تحسينات على الاسطرلاب نفسه، وهو أول من جاء بدليل على أن حركة (ميل) أوج الشمس بالنسبة إلى النجوم (الثوابت) تبلغ بالثواني ١٢،٠٤ بينما هي في الحقيقة ١١،٨ .

وصنع ابن يونس زيجاً سماه (الزيج الحاكمي الكبير) نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠ م وضم فيه جميع الخسوفات والكسوفات وجميع الكواكب، التي رصدها القدماء والمحدثون. ثم أنه درس هذه كلها وقارن بعضها ببعض فتبين له، أن حركة القمر في تزايد في السرعة. وألف البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م كتاب (القانون المسعودي في الهيئة والنجوم) حركة الكرة السماوية اليومية الظاهرية حول الأرض وما يتعلق بذلك، وعروض البلدان، أي صورة الأرض وسمت القبلة وأوضاع المدن المشهورة.

وصحح أبو علي المراكشي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م خارطة المغرب، ويبدو أنه أول من استعمل خطوط الطول الدالة على الساعات المتساوية على الخارطة. ولم تكن عند اليونان ولا عند أحد آخر قبله، وله كتاب (مطارحات) أي التمرين والقوة على الاستنباط، جمع فيه كثيراً من المعارف العلمية المتعلقة بآلات الرصد، وكان في هذا الكتاب جدول يضم مئتين وأربعين نجماً رصدها هو نحو سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م.

وقد شغل العلماء الأندلسيون مكانة مرموقة على هذا الصعيد، فكان منهم مسلمة بن أحمد المجريطي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م، الذي يُعد من أوائل العلماء بالأندلس، وإمام الرياضيين

١٥ ـ انور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٦٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها. وله الفضل في دخول علوم الفلك والكيمياء إلى الأندلس، لكن معظم اهتمامه كان بعلم الفلك. فعني بزيج الخوارزمي، وحوله من السنين الفارسية إلى السنين العربية، ثم اختصره وأصلحه(١٦).

ومن كبار الأندلسيين في هذا العلم أبو بكر بن طفيل المتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م حيث برع في الهندسة والفلك والطب. وقد نظر ابن طفيل من خلال براعته في الهندسة، فرأى أن كل جسم متناهٍ، لأنه قد فرضت فيه الخطط، ولأن كل جسم لا تفرض فيه الخطوط باطل. وعلى هذا تكون الأجرام السماوية متناهية، ويكون العالم بحملته متناهياً. ودلل ابن طفيل على كروية العالم، بقوله أن الكواكب التي تُرى تطلع من الشرق ثم تغيب في الغرب، إذا طلعت على سمت الرأس، أي عمودية على رأس الواقف، كانت الدائرة التي تقطعها أكبر من الدوائر، التي تقطعها الكواكب والنجوم، التي تطلع على يمين الواقف أو عن يساره. ثم أن الكواكب إذا طلعت معاً فإنها تغرب معاً أيضاً، ولو كانت تسير في أفلاك مختلفة.

وكان ابن طفيل يرى ضعف نظام بطليموس، فأشار على تلميذه نور الدين البطروجي بإصلاحه، واقترح عليه طريقة الإصلاح، فكتب البطروجي (كتاب الهيئة) وحاول أن يتخيل للأجرام السماوية دوراناً لولبياً، غير أنه لم يزد الأمر إلا تعقيداً، لأنه ظل يفترض أموراً خيالية(١٧).

استعمل العرب في عملياتهم الفلكية عدداً كبيراً من الآلات نذكر منها: الاسطراب(١٨) الذي كان يُعد أهم الآلات الفلكية، وقد استخدمها العرب في كثير من العمليات الفكلية، كرسم مرتسم الكرة الأرضية على مسطح، وقياس الارتفاعات والمسافات، وارتفاع النجوم والكواكب السيارة والثابتة، وتحديد أوقات الصلاة. وقد أخذ الأوروبيون عن عرب الأندلس هذه الآلة، واستخدموها في ميدان الملاحة البحرية أكثر من أي استخدام آخر(١٩).

ذات الحلق وهي خمس دوائر مصنوعة من نحاس، الأولى دائرة نصف النهار، وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض ودائرة الميل، والدائرة الشمسية. ويعزى إلى العالم العربي عباس بن فرناس اختراعها وإدخال تعديل عليها، إذ يروى أنه

١٦ . انظر عن ذلك عمر فروخ المرجع السابق ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

١٧ . عمر فروخ ـ المرجع السابق ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

١٨ . كلمة مؤلفة من اسطر بمعنى النجم ولابون بمعنى علم النجوم وتعني مقياس النجوم، وتعنها العرب بالآلة الشريفة.

١٩ . ابراهيم شركة . مجلة المجمع العراقي العلمي ـ المجلد ١٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صنع هذه الآلة، ورفعها إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ - ٢٧٣ هـ.

المقياتة. وتدل على الجهات وتحديد أوقات الصلاة. إذ تروي كتب الأدب، أن عباس بن فرناس قدم هذه الآلة هدية إلى الأمير عمر بن عبد الرحمن الأموي.

ذات السمت والارتفاع، وهي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح أسطوانة متوازية السطوح، يعلم بها السمت وارتفاعها. هذا بالإضافة إلى عدد آخر من آلات الرصد المتنوعة(٢٠).

٢٠ . انور الرفاعي . المرجع السابق ص ٦٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس:

العلوم الزراعية

نالت العلوم الزراعية اهتماماً بالغاً من قبل العلماء العرب في العصور الوسطى، ذلك لأن الإقتصاد العربي الإسلامي كان في ذلك الوقت، يعتمد اعتماداً كبيراً على الإنتاج الزراعي، لكن الذي حدث أن ظهور المؤلفات في هذا المجال لم تظهر إلا في أواخر القرن الثالث الهجري، حيث ظهر أول مؤلف عربي باسم (الفلاحة النبطية) لابن وحشية. وظهر بعده بأمد قصير كتاب (الفلاحة الرومية(١)) لمؤلفه قسطوس الرومي، وقام بترجمته من اليونانية إلى العربية سرجيس بن هليا الرومي.

بعد ذلك الوقت يختفي الإنتاج من هذا الميدان إلى حين، وحينما بدأ في الظهور من جديد، ظهر كموضوع ضمن موضوعات أخرى مختلفة، ففي عصر الأيوبيين يتحدث ابن مماتي عن كثير من الأمور الزراعية في كتابه (قوانين الدواوين) الذي يختص بالإدارة، والذي صدر سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م. وفي القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، كتب جمال الدين الوطواط كتاباً بعنوان (مناهج الفكر والمباهج العبر) وكرس الجزء الرابع منه للحديث عن الزراعة(٢).

لكن التأليف في هذا المجال بلغ القمة في الأندلس، مما جعلها تتفوق على غيرها من بلدان العرب والإسلام، وذلك على صعيد الكم والكيف. وربما كان مرد ذلك إلى ظروف الأندلس السياسية والاجتماعية، وبخاصة منها ما نبع عن شعور العرب المقيمين فيها بالانقطاع في الشرق لبعد الأندلس ومحاولتهم أن يقيموا في الأندلس جواً محيطاً شبيهاً بالجو الذي تركوه في المشرق. ويظهر ذلك من خلال حديث كثير من أصحاب المصادر الأندلسية عن مشاعر عبد الرحمن الداخل في المغترب، الأمر الذي يفسر محاولته انشاء ما يشابه الرصافة على الفرات في

١ . يقصد العرب بالروم: البيزنطيون.

٢ . انظر عادل ابو النصر . تاريخ الزراعة القديمة ص ٣٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العاصمة قرطبة، على بُعد ثلاثة كيلو مترات عنها إلى الشمال، وسماها منية الرصافة، وهي عبارة عن قصر ريفي، يتألف من بناء صغير مع حدائق واسعة، ضمت الكثير من النباتات والأشجار، التي عرفت في المشرق، وبخاصة الأشجار المثمرة. ومنذ ذلك الوقت بدأت المنى تظهر بكثرة بالأندلس، بناها علية القوم من حجاب وأمراء وموظفين كبار، كما يستدل على ذلك من أسماء المنى التي حول قرطبة. وقد كانت توضع هذه المنى تحت إشراف رجال بارعين في الشؤون الزراعية، فزرعوها في مختلف النباتات إرضاء لسادتهم، وكانت هذه المنى تشبه المشاتل في عصرنا الراهن، وخلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ظهرت في الأندلس دول الطوائف، التي قاد كل دولة منها حاكم مستقل، والذي حاول بدوره أن يقلد الأمراء والخلفاء الأمويين في كل شيء، ومن جملتها أن يكون له قصر تتبعه حدائق غناء، دعيت هذه الحدائق باسم (جنة السلطان) أو (بستان السلطان). وتروي لنا الأخبار، أنهم أوكلوا أمر العناية بهذه البساتين والجنات إلى جماعة، كان منهم خبراء بارعين في الزراعة، كان منهم أطباء مهتمين بالنباتات ذات الخصائص العلاجية. وقد جمع بعضهم خبرة الأجيال السابقة في ممارسة الزراعة لدى السلاطين، إضافة إلى العلم النظري، الذي أخذوه من المؤلفات المشرقية سابقة الذكر، هذا بالإضافة إلى التراث الإسباني في هذا الميدان المتمثل بمؤلف عالم الزراعي اللاتيني. وقد توفر في كل دولة من دول الطوائف منطقة مشهورة بالزراعة، كمنطقة الشرف في إشبيلية، وحوض نهر التاجه بجوار طليطلة، وغوطة غرناطة. ففي طليطلة عاش إلى جانب ملكها المأمون بن ذي النون ابن وافد الطبيب المولع بالنبات، فعينه المأمون لرعاية منية (جنة السلطان) وألف لسيده كتاب (المجموع في الفلاحة) الذي ترجم إلى القشتالية في العصور الوسطى.

وفي طليطلة أيضاً عاصره محمد بن ابراهيم بن البصال، الذي كرس نفسه كلية للزراعة، وألف لسيده المأمون بن ذي النون (ديوان الفلاحة) ثم اختصره فيما بعد باسم كتاب (القصد والبيان). وقد بقي هذا المختصر ونشر بالعربية كما ترجم للقشتالية. وقبيل سقوط طليطلة بيد الإسبان غادرها ابن بصال إلى إشبيلية، حيث عاش بجوار حاكمها المعتمد بن عباد، وأقام له حديقة ملكية. على أنه لم ينتقل إلى إشبيلية وحده، بل انتقل معه عدد ممن لهم نفس اهتماماته. كما أن المجال في إشبيلية كان أكثر رحابة لعمله وعمل أمثاله، ففيها السهول الواسعة عند انبساط نهر الوادي الكبير، وفيها مرتفع الشرف المجاور لإشبيلية موطن العديد من النباتات المشهورة، التي منها الأصيل ومنها المجلوب، لهذا حظيت إشبيلية بوجود عدد من العارفين العاملين بأمور الزراعة أو الفلاحة، كما كانت تسمى بالأندلس(٣).

٣ . انظر عن ذلك معجم اطباء المغرب والأندلس لابراهيم زعرور وعلي احمد طبعة دمشق ١٩٩٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من أشهر من اجتمع بهم ابن البصال أبو عمر أحمد بن الحجاج الإشبيلي، صاحب كتاب (المقنع) الذي ألفه سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٣ م. وتميز هذا باحتقاره لأقوال وآراء المزارعين الممارسين، الذين نعتهم بالغباوة والغفلة، واكتفى بالاعتماد على أقوال بعض المؤلفين اللاتين، وعلى نتاج تجربته الشخصية في أراضي الشرف بإشبيلية.وتعرف ابن بصال بإشبيلية على عالم النبات الغرناطي محمد بن مالك التفتري نسبة إلى تيفتار قرية بالقرب من غرناطة، وكان قد عمل لدى حكام الطوائف، ثم عمل عند المرابط، وألف لحاكم غرناطي المرابطي رسالة في علم الزراعة سماها (زهرة البستان ونزهة الأذهان).

واستمر التأليف في ميدان الزراعة خلال القرون التالية، ففي نهاية القرن السادس الهجري أو النصف الأول من القرن الذي يليه الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، ألف يحيى بن العوام الإشبيلي كتابه المطول (الفلاحة) في خمسة وثلاثين باباً. وهو عبارة عن جمع مطول لما وضعه القدماء من يونان ولاتين، إضافة لما توصل إليه أسلافه الأندلسيون. لكنه لم يخل أيضاً من التجربة الشخصية للمؤلف، التي يضعها عادة في آخر كل باب، ويحددها بقوله: "وهذه لي". وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة لدى المغاربة والأندلسيين المتأخرين، إلى حد أن المفكر العربي ابن خلدون لم يجد عند حديثه عن الفلاحة في المقدمة، من يستحق الذكر من علماء الأندلس في ميدان الفلاحة والنبات غير أبن العوام هذا(٤) كذلك لقي الاهتمام نفسه لدى المستشرقين، لأن مؤلفه تُرجم إلى لغاتهم في وقت مبكر، حيث ترجم إلى الإسبانية والفرنسية.

وفي أواخر أيام العرب بالأندلس، نرى أن علم الفلاحة يلقى مصير العلوم الأخرى فتنتظم معلوماته شعراً في أراجيز، كما فعل سعد بن ليون التجيبي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٤٩ م الذي ألف كتاب (إبداع الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة) وقد اقتبس مؤلفه من أعمال السابقين، وبخاصة من ابن بصال أو التفتري، كما أنه لم يخل من ملاحظات وأخبار استقاها من المحاربين المحليين.

على الرغم من الاختلاف الذي نلحظه بين مؤلف وآخر، إلا أن قاسماً مشتركاً يجمع بين الجميع سواء في طريقة عمل المؤلفين، أو مصادرهم المعتمدة، أو محتوى المؤلفات. ففي طريقة العمل والمؤلفات، اعتمد الجميع كتب الأقدمين المحلية أو الواردة من المشرق، وأضافوا إليها التجربة والمشاهدة الشخصية سواء في بلدهم أو البلدان اتي ارتحلوا إليها. ويشير ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء، مما يدل على أن أحد الأطباء الأندلسيين، وهو محمد بن مفرج النباتي المعروف

٤ . انظر ابن خلدون المقدمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بابن الرومية، قد استلفت أنظار الناس في المشرق بعلمه في الحديث، وبأنه أتقن علم النبات ومعرفة أشخاص الأدوية وقواها ومنافعها، واختلاف أوصافها وتباين مواطنها.. الخ. وقد وصل سنة ٦١٣ هـ إلى مصر، وأقام بها وفي الشام والعراق نحو سنتين وعاين نباتاً كثيراً في هذه البلاد، مما لا ينبت في المغرب، وشاهد أشخاصها في منابتها ونظرها في مواضعها(٥). ونجد ابن بصال سابق الذكر، يقوم بالحجج ويزور في طريقه صقلية والشام، وحينما يتحدث في كتابه عن زراعة نبات ما، لا يكتفي بذكر كيفية زراعته بالأندلس، وإنما يتطرق إلى طرق الناس في صقلية والشام في زراعته بتفصيل دقيق.

كما أن من خصائص هذه المؤلفات، أن محتواها أغنى بكثير مما تدل عليه عناوينها، إذ تحتوي في الواقع على ما يمكن تسميته بموسوعة في الاقتصاد الريفي، إذ تضم قبل كل شيء الزراعة أو ما يسمونه (فلاحة الأرضين) ويتناولون في هذا الباب دراسة أنواع التربة والمياه والتسميد، وزراعة الحقول بالخضروات والحبوب. وكذلك يتحدثون بتفصيل عن زراعة الأشجار، كالكرمة والزيتون والتين، مع تركيز على عمليات التشذيب وترقيد النبات، أي طمر غصن منه في الأرض بحيث يصبح له جذور جديدة مع بقائه متصلاً بالنبتة الأم والتطعيم. كما عالجوا التدجين أو ما سموه (فلاحة الحيوانات) بما فيها التهجين دواب الحمل، الدواجن، النحل، وكذلك البيطرة، يضاف إلى ذلك فصول في الاقتصاد الريفي، كإدارة الحقل، وانتقاء العاملين، وخزن المحصول بعد الحصاد أو الجني، كما أضاف بعضهم أبحاثاً في مساحة الحقول، وتقويماً عن أوقات الزراعة لكل محصول على حدة.

وهذه المؤلفات جميعها تعكس رقياً للزراعة، سواء في ميدان الكتابة بها، أو في ميدان ممارستها، وذلك عن طريق ذكرها لأصناف من العاملين بها تدل على وجود اختصاصات بها، مما يدل على الرقي مثل، فلاحين، شجارين، جنانين، عشابين، نباتيين، حكماء متكلمين إلى غير ذلك.

لكن هذه المؤلفات تتفاوت فيما بينها في مدى تمثيلها لكل هذه الخصائص ويبدو مؤلف ابن بصال مثالاً بارزاً في هذا المضمار، إذ أنه على الرغم من خلوه من أي شيء عن تدجين الحيوان، إلا أنه يتميز بشكل خاص باعتماده على التجربة الشخصية، التي أتت باستنتاجات ناضجة نظراً لغناها وعمقها واتساع آفاقها ومداها. فقد بدأت هذه التجربة في موطنة طليطلة، مستندة إلى خبرة متراكمة عبر أجيال في جنان المدينة اليانعة على ضفاف نهر التاجه الخصيبة، ثم جنة المأمون

٥ - انظر كتابنا معجم اطباء المغرب والاندلس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو بستان الناعورة، الذي أمر بانتشائه المأمون بن ذي النون، وأقام عليه للتمتع قبة الماء التي اشتهرت أخبارها لدى الشعراء والأدباء. وعهد ابن ذي النون بالإشراف عليها إلى النباتي والطبيب ابن وافد، وكانت حديقة للتجارب بحق على النباتات الحديثة من البلاد البعيدة من الشرقين الأدنى والأوسط. وتزرع فيها وتجري التجارب لجعلها تتلاءم مع البيئة الجديدة، كما تجري فيها التجارب الزراعية والنباتية المختلفة. بعد ذلك انتقل ابن بصال إلى إشبيلية حيث الظروف المشابهة، هذا بالإضافة إلى وجود عدد من علماء الزراعة والنبات، تم تجاوز الأندلس كلها ليوسع أفقه التجريبي بالاطلاع على التجارب الزراعية وكيفية ممارسة الزراعة في كل من صقلية ومصر والشام.

نتيجة لذلك لم يكن من الضروري بالنسبة لابن بصال، أن ينقل عن غيره من المؤلفين، على العكس تماماً مما فعله معظم علماء الأندلس، الذين بالغوا في نقولهم عن الأقدمين، من فينقيين وكلدان يونان وإسبان، أو من علماء المسلمين من أهل المشرق والأندلس، كما فعل ابن العوام على سبيل المثال، حيث أكثر من النقول إلى حد جعل الأمر يختلط على ابن خلدون فيجدره من أي إسهام شخصي، ويعتبره دون وجه حق، مجرد مجموعة من النقول عن الفلاحة النبطية(٦).

كما نجد لابن بصال ميزة خاصة نابعة عن اعتماده على التجربة والتطبيقات العملية، وهي ابتعاده في كتابه عن جميع المسائل الثانوية البعيدة عن التطبيقات الزراعية العملية، مما جعله يفصل وبحدود واضحة بين علم الزراعة الحقيقي وبين الطب والصيدلة والسحر والتنجيم، كما كان الحال عند كثيرين غيره في المغرب والمشرق على حد سواء. كما أن اعتماده على التجربة قاده إلى عرض وجهات نظر فيها إرهاص بالنظريات الزراعية الحديثة. من ذلك على سبيل المثال، أنه عند كلامه على الخضروات، ذكر أنها إذا دفنت في الأرض خضراء كانت سماداً نافعاً للأرض. ولا يزال العمل جارياً بتسميد الأرض ببعض الخضار والبقول مثل الترمس والعدس والخروب.

هذه الاستنتاجات المبنية على التجربة الشخصية، جعلت المؤلفين الأندلسيين الآخرين يعتمدون آراءه، كاعتبار روث الخنازير والطيور المائية مضراً بالأرض. ويرون في بعض أعماله الزراعية طريقة يجب اعتبارها كقاعدة، كما فعل التفتري الغرناطي تجاه عمل ابن بصال في معالجة مرض اعترى بعض أشجار طليطلة وتركها شبه يابسة. فقام ابن بصال بقطع كل الأشجار المريضة وأحرقها في فصل الربيع حتى لم يبق منها شيء على وجه الأرض. وحينما نبتت من الجذور الواقعة تحت الأرض، قام بفحصها فأبقى ما أحب ونقل الباقي إلى جهة أخرى وغرسه.

٦ . احمد بدر . الحضارة العربية الإسلامية ط ٣ طبعة جامعة دمشق ١٩٩٦ ص ٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يقتصر علماء الأندلس على تبني آراء ابن بصال فحسب، بل أكثروا من النقل عن كتبه، كما فعل ابن العوام الإشبيلي في كتابه الضخم، فهو ينوه كثيراً بالأساس التجريبي الذي يقوم عليه كتاب ابن بصال، وينقل عنه أو يشير إليه مئات المرات. وتجاوز تأثير ابن البصال علماء الفلاحة والزراعة الأندلسيين إلى عامة الناس، ذلك لأن نتاج التجارب التي قام بها ونجحت انتقلت إليهم، وحينما هاجر قسم من الأندلسيين إلى شمال إفريقية نقلو طرقهم في الزراعة، وكذلك كتبهم مما جعل الأثر ينتقل إلى هناك. ومن ناحية أخرى أدت ترجمة الكتاب إلى القشتالية منذ وقت مبكر إلى وصول أثر ابن بصال وغيره من علماء الفلاحة العرب المسلمين إلى الزراعة عند الإسبان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس:

علم الكلام والفلسفة

١ ـ علم الكلام:

عرف ابن خلدون علم الكلام، بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب أهل السفة(١).

أما سبب تسميته بعلم الكلام فهناك آراء كثيرة حول هذه المسألة منها أنه ربما سمى (بعلم الكلام) لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف بين المسلمين هي مسألة كلام الله وخلق القرآن، فسمي العلم كله بأهم مسألة فيه. أو لأن مبناه كلام صرف في المناظرات والعقائد، وليس يرجع إلى عمل. أو لأن أنصاره تكلموا في مسائل كان السلف يسكت عنها. أو لأن في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبنيه مسالك الحجة في الفلسفة، فوضع للأول اسم مرادف بالمنطق في تبنيه مسالك الحدة في الفلسفة، فوضع للأول اسم مرادف للثاني، وسمي (كلاماً) مقابلة لكلمة منطق.

فالمتكلم محام يدافع عن الإسلام، يذود عن حياضه ويجادل بالتي هي أحسن ما استطاع إليه سبيلا. فهو يجعل من مسألة مختلف فيها من مسائل الاعتقاد والعقيدة موضوع برهنة جدلية، يورد البراهين النظرية لدعم القضية التي يعرضها. ولقد أخذ هذا الإصطلاح يتسع تدريجياً، ويستعمل للدلالة على هؤلاء الذين يعملون من القضايا المأخوذة بسبب الدين، كمبادئ لا تقبل المناقشة، موضوع برهنة، فيتكملون في تلك المبادئ ويعالجونها ليتوصلوا في النهاية إلى تركيزها في صيغ يرون بأنها يجب أن تكون مقبولة حتى من الأدمغة المفكرة(٢).

---

١ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ص ٤٥٨ .

٢ ـ عادل العوا ـ الكلام والفلسفة طبعة جامعة دمشق ١٩٦١ ص ١٤ ـ ١٦ احمد امين ـ ضحى الإسلام ـ ج ٣ طبعة ٧ مصر ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م ص ٩ ـ ١٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى هذا الأساس يمكننا القول، بأن (الكلام) كان شائعاً في جميع الفرق الدينية الإسلامية، التي نشأت منذ مطلع العصر الأموي، لكنه بقي جملة مذهبية غامضة، أخذت تتضح وتنضج ببطء تبعاً ليقظة الذكاء الجمعي تدريجياً في أواخر العصر الأموي، ولعل السبب في هذا النمو البطيء لهذا العلم في هذه الفترة، يعود لانشغال الأمويين بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة العربية، والدفاع عن حدودها، أو أن الأمويين أنفسهم لم يكونوا في وضع سياسي يسمح لهم بالتسامح مع رجال هذا العلم، كونهم بأنهم اغتصبوا الحكم والسلطة(٣). وبالتالي فإن وجودهم على رأس هذا الحكم وجود غير شرعي، وفي هذه الحالة فإن علم الكلام سيخدم قوى المعارضة، التي أقلقت راحة الخلفاء الأمويين زمناً طويلاً.

ولكي تكون الصورة أوضح فلا بد من دراسة تطورات علم الكلام، الذي تعد بداياته الأولى وأساس وجوده في الفكر العربي الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، قد وضعت في العصر الأموي.

يعتبر أولئك الذين تكلموا بالقدر، منذ فترة مبكرة في العصر الأموي، هم أساس وجود انتشار هذا العلم، الذين يمكن أن تذكر منهم، محمد بن علي بن العباس المتوفى سنة ١٢٥ هـ/٧٤٣ م، الذي أرسله أبوه إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وزيد بن علي بن الحسين حيث قال حين سأله بعضهم عما يذهب إليه: أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق في عفو الله، ومحمد بن سيرين المتوفى سنة ١١٠ هـ/٧٢٩ م، الذي روي عنه أنه وأصحابه مروا برجل مجلود فقال قائل: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به، فقال ابن سيرين : "لا تقولوا هكذا ولكن قولوا: الحمد لله الذي عافانا مما سولت له نفسه"(٤). ومنهم الحسن بن أبي الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ/٧٢٩ م، الذي أثر عنه أقوال ومجادلات متنوعة، تشير كلها إلى أنه كان من الذين اشتغلوا في ميدان الكلام، وإن كان الأمر لم يصل عنده إلى حد التعمق، كما تعني لفظة علم الكلام نفسه. فمن هذه الأقوال ما يدل على أنه كان يؤمن بأن الخير من الله والشر من البشر(٥) وله مع الحجاج بن يوسف الثقفي مراسلات ومجادلات توحي كلها بأنه كان يقول بمسألة القدر. وقد روي عنه، أنه مر بلص مصلوب فقال: طما حملك على هذا فقال: قضاء الله وقدره، فقال: كذبت أيقضي الله عليك أن تسرق وقضى

٣ ـ محمد عبد الرحمن مرحبا ـ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية طبعة بيروت ١٩٧٠ ص ٢٨٢ .

٤ ـ عبد الجبار الهمذاني ـ المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل ـ تحقيق سامي النشار وعصام الدين علي طبعة ١٩٧٢ ص ٣٢ ـ ٣٣ .

٥ ـ الهمذاني ـ المصدر السابق ص ٣٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليك أن تصلب"(٦). وهذا يدل دلالة واضحة على عدم إيمانه بأن الأفعال الخيرة والشريرة، هي من الله قدرها على الإنسان، وهي مكتوبة عليه وستحدث لا محالة. إنما يريد الله للإنسان الخير وليس الشر، فالشر هو من صنع الإنسان.

ويعد الحسن البصري في نظر البعض، أنه هو الذي أسس ما يسمى بالقدرية والتي تطورت فيما بعد إلى ما يسمى بالمعتزلة، وذلك في العصر العباسي. فقد علم تلميذه واصل بن عطاء أن العبد حر، وأن له الاختيار المطلق في الأفعال من خير وشر، وهو المبدأ نفسه الذي قال به المعتزلة فيما بعد(٧).

من كل ما تقدم يمكن القول، أن لفظ (علم الكلام) إنما بدأ يتردد على ألسنة الناس في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي. وكان الكلام بسبب المسائل الجدلية، كالقدر. ثم تبعها مسائل أخرى تتعلق بالقرآن وبصفات الله تعالى. وتظهر ماهية علم الكلام والقصد منه في تلك الفترة الزمنية، إذا عرفنا أنه جامع وثيق بين علم الكلام والفلسفة، يمثله الاتجاه العقلي واعتماد المنطق والحجة والبرهان سبيلاً لنوال القصد وبلوغ الهدف وتحقيق ما هو منشود. بيد أن الفرق بينهما في أن الكلام يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، بينما الفلسفة تعليل بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، فالمتكلم محام عن الدين كما ذكرنا، بينما الفيلسوف ، حث عقلي مدقق يرتب الأدلة والحجج وينظم الأقيسة والبراهين، ثم يطلق الحكم على ما يجده حقاً في نظره كقاض(٨).

تأثرت ولادة علم الكلام في هذا العصر بتيارات فكرية، أدت بدورها إلى ظهور هذا العلم، ويمكن أن نحدد هذه التيارات بفرعين رئيسين، أولهما، الخارجي، ومثله النصارى كالنساطرة واليعاقبة، الذين ركزوا جدلهم حول طبيعة المسيح وقولهم بالقدر. وكان منهم يوحنا الدمشقي، الذي ألف عدة كتب في اللاهوت والفلسفة. وخاصة كتابه (ينبوع المعرفة) ويحاول يوحنا أن يربط بين الله وبين كل الأعمال الخيرة التي تصيب الإنسان، وإن الأمور الاختيارية هي ضمن تصرف البشر، ومنها الأعمال الشريرة، التي تكون مخالفة لله، ولا دخل له بها مع علمه المسبق بحصولها(٩). أما التيار الثاني فيتمثل بالمسلمين أنفسهم، حيث اضطر المسلمون القدماء إلى مجادلة ومناقشة المسلمين الجدد، الذين اعتنقوا الإسلام بعد أن كانوا يدينون بديانات أخرى

٦ . الهمذاني . المصدر السابق ص ٣٥ .

٧ . حنا فاخوري وخليل الجر . تاريخ الفلسفة العربية طبعة بيروت ص ١١٥

٨ . عادل العوا . المرجع السابق ص ١٤ . ١٥ .

٩ . زهدي جار الله . المعتزلة طبعة اولى القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٣ و ٢٥ و ٣٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كاليهودية والنصرانية والمانوية والزرادشتية والصابئة وما إلى ذلك. فبعد أن استقر هؤلاء وهدأت نفوسهم في الإسلام، أخذوا يفكرون في تعاليم دياناتهم السابقة، ويثيرون مسائل من مسائلها ويلبسونها لباس الإسلام، وهذا ما يعلل وجود كثير من الأقوال في كتب الفرق الدينية الإسلامية بعيد كل البعد عن الإسلام. ومن هنا نشأ واجب أساسي اضطلع فيه مفكرو الإسلام، هو واجب المناظرة والنقد، هذا بالإضافة إلى الخصومات السياسية ذاتها، والتي كانت تصطبغ بلون المناظرة الدينية، وبخاصة أن بني أمية كانوا يعلمون أن دولتهم لا يرضى عنها كثير من المؤمنين. وحتى يواجهوا هذه المعارضة السياسية، كانوا يلجأون إلى القرآن والسنة لاستنباط السند الشرعي لدعم حكمهم إذا كان ذلك ممكناً، وهذا ما فعلوه(١٠) وقد أدى هذا الواقع إلى نشوء فريقين متضادين في أواخر العصر الأموي، وأخذ كل واحد منهما يدافع عن أفكاره ومعتقداته ويحاول أن تسود دون غيرها. هذان الفريقان، هما الفريق الذي دعي بالقدرية والفريق الثاني الذي دعي بالجبرية.

القدرية:

هي حركة عقلية داخلية اقتضاها منطق الأشياء والحوادث، وبخاصة في زمن بني أمية، الذين اعتبروا غاصبين للسلطة كما أسلفنا لذا قام القدريون على إنكار دعواهم، معتمدين على أدلة من الكتاب والسنة(١١) ويعتمد مبدأ القدرية على حرية الإنسان في إرادته وقدرته على أعماله. فالإنسان في رأيهم مخيّر لا مسير مجبر، وأنه قادر على فعل الخير والشر، مسؤول عما يفعل يوم الحساب، يثاب على الخير ويعاقب على الشر وذلك بمقتضى العدالة الإلهية. وهم يتأولون الصفات مثل (اليد) و(العين) التي وصف بها الله في القرآن الكريم، وينفون الصفات المعنوية كالعلم والقدرة، فيذهبون إلى أن صفات الله وذاته أمر واحد، أي أن الله تعالى عالم بذاته لا بعلم خارج عن ذاته، وقادر بذاته لا بقدرة خارجة عن ذاته(١٢). وقد أيدوا هذه الأقوال بآيات من القرآن الكريم والحديث النبوي، حتى تكون لدعواهم هذه قبولاً منطقياً عند الناس. ولسنا هنا بصدد تفنيد هذه الحجج أو التعليق عليها في هذا المكان، إنما الذي نريده، هو أن نضيف أن ولادة مثل هذه الحركة في العصر الأموي، كان نذير خير وعافية من حيث أنها كانت مدخلاً للغوص في حقائق الكون والتعرف عليها من خلال البحث عن أسبابها وماهية وجودها، الأمر الذي ساعد العرب المسلمين فيما بعد على وضع فلسفة عظيمة كان لها أثرها الخير على حياة الإنسانية حتى يومنا هذا.

---

١٠ ـ عادل العوا ـ المرجع السابق ص ٢٠ ـ ٢١ .

١١ ـ محمد عبد الرحمن مرحبا ـ المرجع السابق ص ٢٨٥ حنا فاخوري وخلي الجر المرجع السابق ص ٨٥ .

١٢ ـ عادل العوا ـ المرجع السابق ص ٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الذين تكلموا بالقدرية في فترتنا هذه، يمكن أن نذكر محمد بن خالد الجهني المتوفى سنة ٨٠ هـ/٦٩٩ م، لكنه لم يصل إلى الدرجة التي وصلها خلفه المعروف بغيلان الدمشقي، الذي اشتهر في العصر الأموي كرأس للقدرية، وواضع أسسها وتعاليمها. واسمه غيلان بن يونس القدري الدمشقي، كان أبوه مولى لعثمان بن عفان، وتتلمذ على سوسن النصراني ومعبد الجهني والحارث بن سعيد الكذاب وغيرهم(١٣).

اشتهر أمر غيلان في زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز. وأول ما قال به غيلان زمن هذا الخليفة ما معناه، أن العبد يفعل بقدرته ما يشاء دون أن يكون لله مشيئة على أعمال الفرد، فأحضره عمر بن عبد العزيز ووبخه، وبلغه بعد ذلك أن غيلان أسرف في القدر، فاستدعاه إليه وامتحنه، وكان يود أن يذبحه لو لم يتراجع غيلان ويعلن توبيه. فأمر عمر بن عبد العزيز بالكتابة إلى جميع الأعمال بخلاف ذلك، فأمسك غيلان عن الكلام إلى أن مات الخليفة، فعاد يتكلم في القدر ويطعن في بني أمية. لكن هشام بن عبد الملك كان شديداً على القدرية، فلما تولى الخلافة أحضر غيلان وامتحنه فأقر بنفي القدر، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه فمات، وصلب على باب دمشق، ويقال أنه صلب حياً(١٤).

وقد استمر القول بالقدر في الشام على رأي غيلان بعد موته، لكن القدرية لم يشكلوا فرقة ذات قوة، بقدر ما كانوا أفراداً متفرقين، لكنهم سيصبحون أقوياء في العراق بعد سقوط الدولة الأموية. وعلى كل حال نلاحظ أن تأثير غيلان لم يكن في أشخاص عاديين بعيدين عن الحكم فحسب، بل تعدى ذلك إلى العائلة الحاكمة من الأمويين، مثال يزيد بن الوليد(١٥).

الجبرية:

وبالمقابل لحركة القدرية، فقد ظهرت حركة مضادة لها، دعيت بالجبرية، التي قال أصحابها بعكس القدرية تماماً. وقد نهض بهذه الحركة جهم بن صفوان المتوفى سنة ١٢٨ هـ/٧٤٥ م، والذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلها. وعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وإن الكفر هو الجهل به فقط. فقال لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز، ويقول الجبريون أيضاً، بأن العبد مجبر مسيّر في كل ما يفعل، لا يملك أن يختار شيئاً من أفعاله مطلقاً، وليس له القدرة

١٣ ـ احمد امين ـ فجر الإسلام ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ عادل العوا ـ المرجع السابق ص ٢٣ .

١٤ ـ زهدي جار الله ـ المرجع السابق ص ٣٥ .

١٥ ـ الذهبي ـ تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٢٩٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على شيء ونفوا الصفات الإلهية التي تحتمل التشبيه، ونزهوا الله من مخلوقاته، وأنكروا رؤية الله في الآخرة(١٦).

ولقد جند الأمويون مفكرين وشعراء لمناصرتها والدفاع عنها، وتهيئة العقول لقبول فكرة الجبر كاساس لحكمهم، إما اقتناعاً بها أو ممالأة للسلطات ورجال الحكم. وأول من قال بالجبرية، هو جهم بن صفوان، الذي استغل بعض آيات القرآن الكريم، التي يعني ظاهرها الجبر، ولم يترك للإنسان أية قدرة على أفعاله فهو عبارة عن شيء هش ليس له قوة ولا إرادة ولا اختيار.

وجهم بن صفوان من أهل خراسان من الموالي، أقام بالكوفة وكان فصيحاً خطيباً يدعو الناس فيجذبهم ويسحرهم بأقواله. ولقد تعرض جهم إلى مسألة لا تقل خطراً عن الجبرية، وهي القول بنفي صفات الله، ذلك أنه وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة، تدل على أن لله صفات من سمع وبصر وكلام. فنفى جهم أن تكون لله صفات غير ذاته وقال: "إن ما ورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره، بل هو من قبل التأويل، لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله، فيجب تأويل ذلك". وقال: إن القرآن مخلوق خلقه الله إلى غير ذلك(١٧).

سار في هذا الاتجاه بعد جهم بن صفوان، الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد، واصله من حران، وكان له تاثيره الظاهر في تاريخ العقيدة في بلاد الشام. وآراؤه هي نفس آراء سابقيه ولا سيما ابن صفوان، أي أنه قال أن كل ما يصيب الإنسان هو من الله. وقال بنفي الصفات عن الله لتنزيهه عن الذي يوصف به البشر من أعمال، أو يكون له حواس كحواسهم مثل العين واليد أو غير ذلك. ويقول عنه الذهبي: "وكان الجعد أول من تفوه بأن الله لا يتكلم وقد هرب من الشام، فكان يسأل وهب بن منبه عن الصفة فقال: يا جعد ويلك أتعصي المسألة إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك، وأن له عينا ما قلنا ذلك"(١٨).

وكما أثرت القدرية في أبناء العائلة الحاكمة من الأمويين، فإن الجبرية أثرت هي الأخرى في بعض الخلفاء الأمويين، مثال ذلك أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، كان قد تأدب على الجعد بن درهم، وسمي بمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم(١٩).

ومهما يكن من أمر، فإن البداية لعلم الكلام تتضح معالمها إلى حد ما في العصر الأموي،

١٦ ـ احمد امين ـ ضحى الإسلام ج ٣ ص ٨٥ .

١٧ ـ محمد عبد الرحمن مرحبا ـ المرجع السابق ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ احمد امين ـ المرجع السابق ص ١٤٧ .

١٨ ـ الذهبي ـ تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٢٣٩ .

١٩ ـ السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٥٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي انطلقت أرضيته واتسعت حتى أصبحت علماً قائماً بذاته في العصر العباسي تحت اسم المعتزلة.

وإننا نلاحظ أن بعض الخلفاء الأمويين، كانوا يفرضون حجراً على رواد هذا العلم، بدليل أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد وضع رسالة بليغة في الرد على القدرية. لكننا يجب أن لا نظلم عمر بن عبد العزيز من هذه الناحية، كأن نقول أنه رجل أحب الخوض في مباحث علم الكلام والجدل عن قناعة وإرادة مسبقة. فالذي يتضح من خلال دراستنا لسيرته، أنه لم يكن يجادل حباً في الجدل، إنما الذي حدث، أنه وجد نفسه مجبراً على ذلك باعتبار أن القدرية ممثلة بغيلان الدمشقي، ظهرت في عصره، وكان عليه أن يجيب غيلان ويناقشه في المسائل التي قام بها وروج لها، لأن الخليفة يمثل المسلمين في جميع المجالات.

ولم يشتهر عمر بن عبد العزيز على صعيد الجدل مع القدرية فحسب، إنما جادل الخوارج الذين نشطوا في عهد الذين سبقوه من الخلفاء واستطاع هذا الخليفة الذي لجأ إلى الإقناع العقلي بديلاً عن سلاح القتل وسفك الدماء، فتمكن من تهدئة غليانهم خلال فترة حكمه القصيرة، مما يدل على مقدرته ومهارته الفكرية، واطلاعه الواسع في مجال الجدل والإقناع، وبالتالي على طبيعته الهادئة، ومعاملته اللينة مع الذين عارضوا الخلافة الأموية(٢٠).

كما أُجبر الأوزاعي على الخوض في غمار الجدل، فهو الذي جادل غيلان الدمشقي وأفتى بقتله. وهو الذي نصح أبا مسلم الفزاري بعدم الرواية عن ثور بن يزيد، فغضب غضبة شديدة، ثم قال: قال رسول الله (ص) ستة لعنتهم ولعنهم الله، وكل نبي مجاب الدعاء، الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، وثور ابن يزيد أحدهم، ثم قال لي: لا تأخذ دينك عنه ولا عن محمد بن اسحق، فإنه كان يرى الاعتزال، قال أبو مسلم، فمحيت كتابي الذي سمعته عن ثور وألقيته في التنور(٢١)" حتى أن الأوزاعي اضطر إلى إرسال بعض الرسائل للقدريين يرد فيها على أقوالهم.

المرجئة:

بعد مقتل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب، ظهر على الساحة السياسية الخوارج والشيعة، وكل فئة تقول بأشياء وأفكار ضد الفئة الأخرى. وتركز الخلاف بينهما على أحقية الخلافة، هل هي لعلي بن أبي طالب أم لمعاوية بن أبي سفيان، أم غيرهما. وأخذت كل فرقة

٢٠ . انظر بعض الأمثلة عن مناظراته للخوارج الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص ٣١١ .

٢١ . ابن عساكر . التهذيب ج ٦ ص ٤١١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحاول أن تدعم رأيها من القرآن الكريم والحديث النبوي، علماً أن الفئتين كانتا تقفان ضد معاوية ومن الأمويين بشكل عام، فالأمويون في نظرهما غاصبين للسلطة. ونشأ عن هذه الخصومة السياسية جدل، استمدت مقواته من كتاب الله وسنة رسهل، وتسبب ذلك كله بنشوء ما سمي في الحياة العقلية العربية الإسلامية بعلم الكلام.

في غمرة هذه الأحداث السياسية والفكرية، نشأت فرقة المرجئة. فكانت سياسية في بادئ الأمر، ثم ما لبثت أن أضفت على آرائها الطابع الديني، وحددت محوراً لآرائها يدور حول جوهر العقيدة هو (الإيمان) و(الفكر) و(المؤمن) و(الكافر)(٢٢). وكان السبب في ذلك كل موقف الخوارج والشيعة السياسي والديني من بني أمية، إذ كانت كلتا الفرقتين تعتبر بني أمية مغتصبين للسلطة في حكم المسلمين، هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الدينية فقد اعتبروا كفاراً. يضاف إلى ذلك أن كل طريق منهما اعتقد بتكفير الفريق الآخر. وهنا نشأ فريق اتخذ موقفاً وسطاً بين الأطراف المتخاصمة، ورفضوا إعطاء حكم على أي طرف من هذه الأطراف، ولم يكفروا أحداً، بل أرجأوا الحكم إلى الله في حق الناس، وقالوا أن الأعمال ليست جزءاً من الإيمان، أي الإنسان لا يُعد كافراً إذا ارتكب معصية وإن كانت كبيرة طالما كان مؤمناً بقلبه، ولا أحد يستطيع الحكم على ما في قلوب البشر إلا الله سبحانه وتعالى. هذا الفريق سمي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية بالمرجئة، لأنهم قالوا بإرجاء أمر المختلفين حول الخلافة إلى الله وإلى يوم القيامة. وهذه النزعة أدت إلى عدم الدخول في الحروب والمنازعات، التي بين المسلمين بعضهم وبعض هي الأساس، الذي بني عليه مذهب الإرجاء، والذي لم يتكون كمذهب عقائدي نابع من الكتاب والسنة إلا بعد ظهور الخوارج والشيعة. ثم تطورت المرجئة لتصبح فرقة كلامية تبحث في العقائد الدينية والمسائل المتصلة بهذه العقائد، ولا سيما مسائل الإيمان والمؤمن والمعصية والعاصي والكفر والكافر. وقالت المرجئة: إن الإيمان هو معرفة الله ورسله، وإن من آمن بالله ورسله، وترك الفرائض وارتكب كبيرة من الكبائر، فهو مؤمن، وأن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب وأن الأعمال القاهرة ليست جزءاً من الإيمان. وهذا مخالف لما قالت به الخوارج من أن الإيمان هو معرفة الله ورسله، وأداء الفرائض، والكف عن الكبائر. كما أنه مخالف لما قالت به الشيعة، حيث كان اعتقادهم بالإمام ركناً أساسياً من أركان الإيمان. في حين اتخذ المرجئة موقفاً أكثر مغالاة حول آراء الشيعة والخوارج فقالت: "إن الإيمان الاعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان، أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل" وقالت المرجئة أيضاً بأن لله وعداً

٢٢ - احمد امين . ضحى الإسلام ص ٢١٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ووعيداً وأن وعده لا يتخلف لأن العقاب الذي توعد الله به عدل، ولله أن يتصرف في عدله كما يشاء(٢٣).

وعلى هذا الأساس من الفهم للإيمان عند المرجئة، اتسعت دائرة المؤمنين حتى أصبح في نظرهم أن كل من آمن بالله ورسله فهو مؤمن وإن ارتكب الكبائر، ومن الممكن أن يدخل الجنة من غير عقاب. واعتبروا كل الطوائف المخالفة لهم من شيعة ومعتزلة وخوارج وغيرهم مؤمنين، كما عدوا كل من تأول واجتهد مؤمناً وإن أخطأ، وليس كافراً إلا من أجمعت الأمة على كفره، وليس أحد يخلد في النار من المؤمنين وهذا الموقف الديني للمرجئة ينطوي أيضاً على موقف سياسي يتمثل بموقفهم المحايد تجاه الخلفاء الأمويين، فهم ليسوا معهم ولا ضدهم، وفي نظرهم أن كلا الفريقين المتنازعين على السلطة من اتباع علي بن أي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، جميعهم مصدق بالله ورسوله، وبالتالي جميعهم مؤمن، لأن غاية خطأهم، إن كانوا أخطأوا أنهم ارتكبوا كبيرة والكبيرة لا تخرج من الإيمان.

مهما يكن من أمر فإن المصادر التاريخية، لم ترو لنا أن أحداً من رجال المرجئة قد اضطهد من قبل الأمويين، لا بل نرى أنهم كانوا يستعملون من عرف بالإرجاء في أعمالهم وذلك كما فعل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة بثابت قطنة شاعر المرجئة، فقد ولاه أعمالاً من أعمال الثغور وعلى العموم فيمكننا وصف المرجئة بأنهم جماعة مسالمة لأن عقيدتهم تبعث على المسالمة والوقوف على الحياد.

والمرجئة عدة أصناف، صنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر كأبي شمر، وابن شبيب وغيلان، وسموا مرجئة قدرية، فقالوا إن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله تعالى، وبما جاء عنده مما اجتمعت عليه الأمة كالصلاة والصيام والزكاة والحج وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ونحو ذلك.

وصنف منهم قالوا بالإرجاء بالإيمان وبالجبر في الأعمال على مذهب جهم بن صفوان، أي على مذهب الجبرية.

وقد عرف مذهب المرجئة في العراق والشام، وكان له أنصار في خراسان(٢٤).

المعتزلة:

فرقة كلامية إسلامية ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، أي في نهايات

٢٣ . احمد امين . ضحى الإسلام ص ٣١٩ . ٣٢٠ .

٢٤ . انظر شوقي ضيف . تاريخ الأدب العربي . العصر الإسلامي ص ٢٠٥ . ٢٠٦ احمد امين . ضحى الإسلام ص ٣٢٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصر الأموي، وبلغت مجدها في العصر العباسي الأول، وقد تضاربت آراء المؤرخين في سبب إطلاق اسم (المعتزلة) على هذه الفرقة. فمنهم من قال بأنها سميت كذلك، لاعتزالها قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر. ومنهم من قال بأن السبب في تسميتهم (معتزلة) ما ذكر أن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، اعتزلا حلقة الحسن البصري واستقلا بأنفسهما(٢٥).

ويرى البعض أن اسم معتزلة، يعود إلى ما قبل انفصال واصل بن عطاء علن الحسن البصري، وأن أصل المعتزلة أصل سياسي، فقد نشأ كما نشأ الشيعة والخوارج. فيروى أن سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، اعتزلوا عن علي بن أبي طالب، ورفضوا محاربته، كما رفضوا القتال إلى جانبه، فسموا بالمعتزلة وهم أجداد جميع المعتزلين الآخرين(٢٦).

من هذه الأقوال يمكن أن نستنتج أن الاعتزال تكون حول الحسن البصري وتلميذيه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وأن الاعتزال كان يدور حو مسائل دينية بحتة.

أما كيف تكونت المعتزلة حول الحسن البصري، فذلك يعود إلى الجدل المذهبي، الذي كان يدور على ألسنة أصحاب الفرق الدينية حول الإيمان والكلام في كتاب الله وسنة رسوله. فعدّ المسلمون مرتكب الكبيرة ما دون الشرك فاسداً أو فاجراً، لكنهم اختلفوا في شأن الفاسق، هل مؤمن أم كافر، فقال الخوارج بل هو كافر مخلّد في النار إذ لا يتم الإيمان دون العمل. وقالت المرجئة أنه مؤمن، وامتنعت عن تعيين القصاص وأرجأت أمره إلى يوم القيامة ليحكم الله فيه كما يشاء. وذهب الحسن البصري يعقد حلقات المناظرة في مساجد البصرة ويقول، أن مرتكب الكبيرة منافق، وبقيت القضية غير محلولة حلاً مرضياً لجماعة المسلمين، فقام واصل بن عطاء يعرض حلاً جديداً لها، فعدّ مرتكب الكبيرة فاسقاً، وجعل له منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان(٢٧).

وعلى أساس ما ذكرناه، فإن موقف المعتزلة كان موقفاً وسطاً بين الخوارج والمرجئة وعلى الأخص واصل بن عطاء وأتباعه الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين وأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً وليس بكافر لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه. وتتلخص تعاليم المعتزلة في الأصول الخمسة التالية:

---

٢٥ . عبد الجبار الهمذاني . المصدر السابق ص ١٠ .

٢٦ . حنا فاخوري وخليل الجر . المرجع السابق ص ١٠٧ .

٢٧ . زهدي جار الله . المرجع السابق ص ١٢ . ١٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ التوحيد: التوحيد من العقائد الإسلامية الأساسية لم يبتدعه المعتزلة ابتداعاً وإنما دافعوا عنه دفاعاً مستميتاً حتى عرفوا بأهل التوحيد، لكنهم بحثوا في جوهره ودحضوا الآراء التي تشوب وحدة الله المطلقة والتنزيه الكامل. وعلى هذا الأساس من الفهم للتوحيد فقد حاربوا بعنف كل ما يحمل على التشبيه أو اعتبار صفات في الله. وأهم مسألة أثيرت كانت موضع جدل وخصومة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي انطلاقاً من مبدأ التوحيد ونفي الصفات عن الله تعالى، هي مسألة خلق القرآن الكريم. فقالوا إن اعتبار كلام الله أزلي ينافي التوحيد، والقرآن وهو كلام الله محدث، لأن فيه جميع صفات الحدوث. فهو مؤلف من سور وآيات وكلمات وحروف تُقرأ وتُسمع، ولها بداية ونهاية فلا يمكن أن تكون أزلية، كما يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم فيه الناسخ والمنسوخ. والناسخ يبطل المنسوخ، فلا يجوز أن يقع النسخ في القديم ولا يجوز أن يوصف الأزلي بالحدوث فالقرآن إذاً مخلوق وكلام الله أيضاً مخلوق يحدثه الله عند الحاجة إليه(٢٨).

٢ ـ العدل: إن المؤمنين جميعاً يعتقدون بعدل الله، لكن المعتزلة توسعوا في معنى العدل وحدوده، وقالوا أن كل إنسان محاسب على أعماله لأن له الاختيار المطلق في الأفعال من خير وشر. والعدل من صفات الله والظلم والجور منفيان عنه، قال تعالى: وما ربك بظلام للعبيد. وقال تعالى: وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وقالوا بحرية العبد وتمكنه من خلق أفعاله وناضلوا في سبيل هذا المبدأ حتى أطلق عليهم أهل العدل والتوحيد(٢٩).

٣ ـ الوعد والوعيد: إن الإيمان في رأي المعتزلة هو معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، وإن كان عمل فرضاً كان أو نفلاً إيمان، وكلما ازداد الإنسان خيراً ازداد إيماناً، وكلما عصا نقص إيمانه. وإن المعاصي التي يرتكبها الناس تنقسم إلى صغائر وإلى كبائر، واختلفوا في تعريف الكبيرة والصغيرة، لكن المشهور من أقوالهم أن الكبيرة ما أتى فيها الوعيد، والصغيرة ما لم يأت فيها الوعيد، وربطوا الثواب والعقاب بالأعمال. فالله يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة، وصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب، لا يجوز أن يعفو الله عنه لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به، ويقتضي أن ينفذ الله وعده ووعيده، لأنه عدل والعدل واجب على الله(٣٠).

٤ ـ المنزلة بين المنزلتين: وهذا الأصل من تعاليم المعتزلة، كان السبب في اعتزال واصل بن

---

٢٨ ـ احمد امين ـ ضحى الإسلام ص ٢٢ ـ ٤٤ .

٢٩ ـ حنا فاخوري وخليل الجر ـ المرجع السابق ص ١١٧ احمد امين ـ فجر الإسلام ص ٢٩٧ .

٣٠ ـ احمد امين ـ ضحى الإسلام ص ٦٢ ـ ٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عطاء عن مجلس أستاذه الحسن البصري، كما ذكرنا سابقاً، وهو الحكم الذي قاله به على المسلم الذي يرتكب الكبيرة دون الشرك بأنه لا مؤمن ولا كافر، بل فاسق، وجعل الفسق منزلة مستقلة عن منزلتي الكفر والإيمان. فيكون الفاسق دون المؤمن وخير من الكافر.

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إن هذا الأصل من تعاليم المعتزلة، يشترك فيه المسلمون عامة. والمعتزلة يجعلون من ذلك واجباً على كل مؤمن.

ومن أهم دعاة المعتزلة في العصر الأموي، واصل بن عطاء المعروف بالغزال. من أهم تصانيفه كتاب أصناف المرجئة، كتاب في التوبة، كتاب المنزلة بين المنزلتين، كتاب معاني القرآن، كتاب الخطب في التوحيد والعدل، كتاب السبيل إلى معرفة الحق وغيرها. توفي سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٨(٣١).

وعمرو بن عبيد المتكلم الزاهد المشهور، الذي كان شيخ المعتزلة في عصره، ألف العديد من الخطب والرسائل والرد على القدرية، وكلام كثير في العدل والتوحيد وغير ذلك توفي سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م(٣٢).

وقد أصبحت المعتزلة المذهب الرسمي في العصر العباسي، وبخاصة في فترة حكم المأمون والمعتصم، وكذلك في دولة الأغالبة في تونس بالمغرب العربي، وذلك خلال العصر العباسي الأول. فألزم المأمون الناس بالقول بخلق القرآن، وعقد مجالس المناظرة من أجل نشره، ومن لم يقل بخلق القرآن من كبار الشخصيات، كان مصيره السجن أو القتل. ولا بد أن هذا العمل كان من أعظم الأعمال، التي دعا لها المأمون، الذي كان ملماً في ثقافات عصره، ولا سيما الثقافة الفلسفية منها، ذلك لأن أفكار المعتزلة تشجع الاعتماد على العقل الناضج في تسيير أمور الحياة وتطويرها على أسس واقعية متينة، وبالتالي الابتعاد عن الغيبيات التي تمسك بها المسلمون، وما زالوا يتمسكون بها إلى حدٍ كبير. لكن الذي يؤخذ على المأمون والمعتصم والواثق رواد الدعاء للاعتزال، أنهم فرضوا أفكارهم بالقوة. وحين جاء المتوكل إلى الخلافة قام باضطهاد المعتزلة وضعف أمرهم(٣٣). وبذلك يكون قد قضى على أكبر حركة فكرية عربية، أرادت العودة بالإسلام إلى حقيقته الأولى، وجعله يسير على الطريق التي أراد الرسول الكريم(ص) أن يسير عليها منذ البداية، وهي طريق الخير والتقدم والتطوير.

---

٣١ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج ٦ ص ١١ .

٣٢ ـ ابن خلكان المصدر السابق ج ٣ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٢ .

٣٣ ـ المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمعتزلة هم أول من حكم العقل في أمور كثيرة، فاتفقوا على أن الإنسان قادر بعقله على التمييز بين حسن الأشياء وقبحها، وعلى التفرقة بين الخير والشر، وقالوا بالصلاح والأصلح، وقرروا حرية الإرادة وقدرة العبد على خلق أفعاله، كي يكون للثواب والعقاب معنى، وتأولوا النصوص الدينية التي لا تتمشى مع العقل، ولا يقرها المنطق. وأتوا بحجج عقلية بارعة في دفاعهم عن الدين وردهم على خصومه. بالجملة فالمعتزلة في مقدمة العقليين في الإسلام، فلهذا سموا (مفكري الإسلام الأحرار). ويشبههم في الفترات اللاحقة، السهروردي القتيل، وابن عربي، وابن سبعين، حيث استطاع هؤلاء أن يبرزوا التيار العقلي في الإسلام، وأن يدعموه ويؤديوه، ووجدوا في القرآن والسنة ما يتمشى معه ويعتز به(٣٤).

٢ ـ الفلسفة:

لم يكن لعرب الجاهلية فلسفة شبيهة بفلسفة الإغريق، ذلك لأن طبيعة بلادهم كانت تدعوهم إلى الكفاح في سبيل الحياة. ولكن بعد الإسلام حينما دخل كثير من أتباع الديانات الأخرى ومن الأجناس غير العربية في الإسلام بدأوا بنقل بعض الفلسفة اليونانية وغيرها إلى المسلمين، ولما أقبل العرب المسلمون على الكتب الأجنبية يترجمونها ويدرسونها، ويفسرونها ويعلقون عليها، وأكثر ما جذبهم في هذا المجال الفلسفة اليونانية. وكان العلماء الذين بدأوا ينبغون في العصر العباسي الأول أشبه بعلماء العصور القديمة والوسطى، ملمين بأكثر من علم واحد، فكان كثير منهم يشتغل بالرياضيات والفلك والكيمياء معاً، كما أن كثيراً من أطبائهم كان يشتغل بالفلسفة وبالعلوم الأخرى، وكان الرجل لا يعتبر عالماً أو فيلسوفاً إلا إذا أحاط بأكثر من علم، ولكن يغلب عليه اسم رياضي أو فلكي أو منجم، أو طبيب، أو فيلسوف، أو موسيقي، فيما إذا تغلب عليه هذه الناحية عليه وعلى سائر العلوم الأخرى التي يتقنها(٣٥).

عالجت الفلسفة العربية الإسلامية المشاكل التقليدية الكبرى، وهي مشكلة الإنسان والعالم والإله. وفصلت القول فيها، متأثرة بالبيئة والظروف المحيطة بها، ومستعينة بما وصل إليها من دراسات فلسفية سابقة، وانتهت إلى طائفةمن الآراء. وتمتاز الفلسفة العربية الإسلامية بوجه عام بالمميزات التالية:

١ ـ هي فلسفة روحية دينية. تقوم على اساس من الدين، وتركز على الروح تركيزاً كبيراً. هي فلسفية دينية لأنها نشأت في قلب الإسلام، وتربى رجالها على تعاليمه، وعاشوا في جوه. ومن

٣٤ . ابن رشد . فصل المقال ص ٢ . ٣ .

٣٥ . انور الرفاعي . المرجع السابق ص ٦٧٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخطأ الظن أن الفكر الفلسفي العربي الإسلامي، لم يولد إلا في القرن الثالث للهجرة على أيدي الكندي فيلسوف العرب، بل سبقه في مدرسة المعتزلة مفكرون آخرون ذوو مذاهب فلسفية مكتملة، كأبي الهذيل العلاف المتوفى سنة ٨٤٩ م. تبدأ الفلسفة العربية الإسلامية بالواحد، وتحلل فكرة الألوهية تحليلاً شاملاً دقيقاً لم يسبق إليه. وكأنما كانت تتبارى مع المدارس الكلامية المعاصرة من معتزلة وأشاعرة، فتتدارك النقص في هذه المدارس، وتمعن في تصوير الخالق تصويراً قائماً على التجربة والتنزيه والوحدة المطلقة والكمال التام. وعن الواحد صدر كل شيء فهو المبدع والخالق، أبدع كل شيء من لا شيء، وخلق العالم في الأزل، ونظمه وسيره(٣٦)، وعلى هذا فالطبيعة مرتبطة في الفلسفة العربية الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالميتافيزيقا، ولا يخرج علم النفس والأخلاق عن ذلك كثيراً. فالنفوس البشرية، مهما اختلف فلاسفة الإسلام في حقيقتها وخلودها، فإنهم يسلمون جميعاً بأن فيها شيئاً نورانياً إلهياً. فهي لا تستطيع الكشف عن الحقائق الكلية إلا بمدد سماوي، وفيض علوي(٣٧).

وما كان لرجال في العصور الوسطى، أن ينكروا فلسفة تقول بالحق والإبداع، وتبرهن على خلود الروح، وتؤمن بالجزاء والمسؤولية، والبعث والسعادة في الآخرة(٣٨).

٢ ـ هي فلسفة عقلية. على الرغم من الطابع الديني الروحي للفلسفة الإسلامية، فإنها تعتد بالعقل اعتداداً كبيراً، وتعول عليه التعويل كله في تفسير مشكلة الألوهية، والكون، والإنسان. فالعقل البشري قوة من قوى النفس، ويسمى النفس الناطقة، وهو نوعان، عملي يسوس البدن وينظم السلوك، ونظري يختص بالإدراك والمعرفة، فهو الذي يتقبل المدركات الحسية، ويستخلص منها المعاني الكلية بمساعدة العقل الفعال، الذي هو من نفوسنا بمثابة الشمس من أبصارنا(٣٩).

وبالعقل نعلل ونبرهن، وبه نكشف الحقائق العلمية، فهو باب هام من أبواب المعرفة، لأن المعارف ليست منزلة كلها، بل منها ما يستنبطه العقل ويستخلصه من التجربة. وقد انتقل هذا المفهوم إلى الفلسفة المسيحية، وكان فلاسفة الإسلام بوجه خاص حملة رايته، وأثاروا في القرن الثالث عشر حركة فكرية قوية، فأيدهم بعض المدرسين، وعارضهم آخرون(٤٠). وتطورت الدراسات العقلية تطوراً كبيراً، وكانت الدراسات النقلية في القرون السابقة قوية وغالبة، وحينما

---

٣٦ ـ ابن سينا ـ الإشارات والتنبيهات طبعة ليدن ١٨٥٢ ص ١٤٧ وما بعدها.

٣٧ ـ ابن رشد ـ مناهج الأدلة في عقائد الملة طبعة القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٣٨ .

٣٨ ـ ابن سينا ـ الشفاء ج ٢ طبعة القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٥١ .

٣٩ ـ ابن سينا ـ الإشارات ج ١٩٠ وما بعدها.

٤٠ ـ الشهرستاني ـ نهاية الإقدام في علم الكلام طبعة اكسفورد ١٩٣٤ ص ٣٩٧ . ابن سينا ـ الإشارات ص ٢٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتقابل العقل مع النقل في بيئة دينية، تثار الخصومة بينهما، وتكون الحاجة ملحة لتغليب أحدهما على الآخر أو التوفيق بينهما، ويمتاز القرن الثالث عشر بكثرة ما صدر فيه من قرارات كنسية، تحرم كتباً فلسفية أو دراسات عقلية بعينها، ولا جدال بأن ازدياد سلطان العقل يعدو على نفوذ الكنيسة. بقي أن نقول، أن مشكلة التوفيق بين الفلسفة والدين، أثيرت من قبل في الفلسفة المسيحية مثلما أثيرت في القرن الثالث عشر على أثر اتصال الغرب بالفلسفة العربية.

٣ ـ هي فلسفة توفيقية. توفيق بين الفلاسفة بعضهم وبعض. وقد عرف العرب شيئاً من الفلسفات الشرقية القديمة، لكنهم عنوا عناية خاصة بأفلاطون وأرسطو، فترجموا لأفلاطون أهم محاوراته وهي: الجمهورية، وترجموا للثاني أي ارسطو معظم مصنفاته. ويمكن القول أن العرب عرفوا أرسطو وأفلاطون معرفة مباشرة عن طريق مؤلفاتهما، وعن طريق ما نقله المؤرخون السابقون عنهما، وما نقله عنهما حنين ابن اسحق في كتابه (نوادر الفلاسفة والحكماء)(٤١).

وللفارابي موقفه الواضح تجاه مسألة التوفيق، فهو يؤمن بوحدة الفلسفة، وأن كبار الفلاسفة يجب أن يتفقوا فيما بينهم، ما دامت الحقيقة هدفهم جميعاً. ولا شك في أن أفلاطون وأرسطو هما زعيما الفلسفة، وضعا أصولها، وفصلا القول فيها، وبلغا بها الغاية، ولا يمكن أن يتصور خلاف بينهما. والأتباع والتلاميذ هم الذين توهموا هذا الخلاف، ووسعوا هوته. وعمل الفارابي على طريقته الجمع بين أفلاطون وأرسطو قدر المستطاع(٤٢).

كما عمل الفلاسفة العرب على التوفيق بين النقل والعقل، ويمكن أن نقرر أن فلاسفة العرب المسلمين دون استثناء شغلوا بهذا التوفيق، من الكندي إلى ابن رشد، وبذلوا فيه جهوداً كبيرة، وأدلوا بآراء لا تخلو من طرافة ومتعة، وكان لجهودهم أثر في انتشار الفلسفة، ونفوذها إلى صميم الدراسات الإسلامية الأخرى(٤٣).

٤ ـ هي فلسفة وثيقة الصلة بالعلم. تغذيه ويغذيها، وتأخذ عنه ويأخذ عنها. فقد كان فلاسفة الإسلام يعتبرون العلوم العقلية جزءاً من الفلسفة، وعالجوا مسائل في الطبيعة كما عالجوا مسائل أخرى في ما بعد الطبيعة. مثال ذلك كتاب الشفاء لابن سينا، وهو أكبر موسوعة فلسفية عربية، فإنه يشتمل على أربعة أقسام، ينصب أولها على المنطق، والثاني على الطبيعيات، والثالث على الرياضيات، والرابع على الإلهيات. وفلاسفة العرب المسلمين، علماء، ومن بينهم علماء مبرزون، فالكندي عالم قبل أن يكون فيلسوفاً، عنى بالدراسات الرياضية والطبيعية، وكان يرى أن الإنسان

٤١ . ابن النديم . الفهرست ص ٢٨٦ .

٤٢ . الفارابي . الثمرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية طبعة ليدن ١٨٩٠ ص ١ وما بعدها.

٤٣ . انظر ابن رشد . فصل المقال ص ٢٥ . ٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يكون فيلسوفاً قبل أن يدرس الرياضيات. وعدّ الكندي في عصر النهضة واحداً من اثني عشر قطباً من أقطاب الفكر في العالم. وابن سينا حجة في الطب بقدر ما هو حجة في الفلسفة، تعلم الطب في سن مبكرة، وزاوله ولم يجاوز العشرين، وأحرز فيه شهرة فائقة، وتوسع فيه درساً وبحثاً. وكتابه القانون من أم المؤلفات الطبية العربية(٤٤).

والواقع أن العلوم الطبيعية والرياضية وثيقة الصلة بالدراسات الفلسفية في الإسلام، ولا يمكن أن يفهم أحدها دون الآخر. ويوم أن ضعف البحث الفلسفي ضعفت معه الدراسات العلمية. مثال ذلك الرازي، وهو أكبر طبيب في العرب، بل وفي القرون الوسطى على الاطلاق، ويمتاز بالأصالة ودقة الملاحظة، واستطاع أن يكشف عن أمراض لم تكن معروفة من قبل. وكتابه (الحاوي) في مقدمة كتب الطب العربية التي اعتمد عليها الغرب الأوروبي، ومع ذلك فقد اتجه إلى الفلسفة، وحرص على أن يلقب بالفيلسوف(٤٥).

ومن أشهر فلاسفة العرب في العصور الوسطى:

الكندي: واسمه يعقوب بن اسحق الكندي، وهو عربي الأصل من قبيلة كندة، نشأ في الكوفة ودرس في البصرة، ثم في بغداد. اطلع على آراء المعتزلة ورسائل إخوان الصفا وتأثر بها. وترجم العديد من الكتب الفلسفية اليونانية، وانتقد بعضها وعلق عليها، وألف الكثير من الكتب الفلسفية، قيل أنها بلغت مئتين وسبعين كتاباً، ومن دراسة ما وصل منها يمكن القول، أن الكندي كان واسع المعرفة بعلوم وفلسفة اليونان، وأنه تميز بالدقة في تحديد الألفاظ الفلسفية وفي وجوه استعمالها، وبناءه البحث الفلسفي على اسس من الرياضيات. وقد انحصرت فلسفة الكندي في المحاور التالية.

تكون المعرفة من طريق العقل ومن طريق الحواس، ومن طريق المخيلة التي هي رتبة وسط بين العقل والحس. أما النبوة فهي ضرورة للبشر في المعرفة وفي الهداية.

الأعداد متناهية في نفسها، وسلسلة الأعداد غير متناهية في حياتنا، لأن بإمكاننا أن نزيد عدداً بالجمع أو بالتضعيف بلا نهاية، ولكن المعدودات متناهية لأنها أجسام ولأنها أشياء مادية مخلوقة.

كل جسم متناه في المكان ومتناه في الزمان من أوله. والجسم جزء من الطبيعة، والطبيعة هي الوجود المتحرك (الخاضع للحركة) والمتعلق بالسببية، إذ لا يوجد جسم بلا سبب، وما كان له

٤٤ ـ القفطي ـ تاريخ الحكماء ٣٦٦ ابن ابي اصيبعة ـ عيون الأنباء ج ١ ص ٢٠٦ .

٤٥ ـ الرازي ـ السيرة الفلسفية صفحات عديدة ـ ابراهيم مدكور في الفلسفة الإسلامية ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سبب فلا يمكن أن يكون أزلياً. وللعالم شكل، والشكل الوحيد الممكن للعالم هو الشكل الكروي، فالعالم إذن متناه من حيث المكان. وهو قياس للحركة وحادث بحدوثها. وهذا يعني أن العالم والحركة والزمان متناهية وحادثة(٤٦).

الفارابي: أصله من خراسان وهو أبو نصر محمد بن محمد بن طرفان الفارابي. تنقل في أمهات المدن الإسلامية، مكث بدمشق مدة، وأخذ الفلسفة في بغداد وحران. ولقب الفارابي بفيلسوف المسلمين وبالمعلم الثاني، على اعتبار أن أرسطو كان يلقب بالمعلم الأول، وكان يجيد الضرب على العود وألف كتاب الموسيقى الكبير. ألف العديد من الكتب منها، رسالة في العقل نحا فيها منحى أرسطو، وكتاب إحصاء العلوم ويقسم العلوم فيه إلى خمسة أقسام. وكتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو طاليس ويحاول فيه نفي الخلاف بين هذين الفيلسوفين، لأنهما حكيمان متطوران وإمامان مبرزان في الفلسفة، ولا يمكن لحكيمين كبيرين أن يختلفا. وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلةويشمل قسمين متميزين الأول، فلسفي عقلاني والثاني في الفلسفة السياسية، التي استقاها من البيئة التي كان يعيشها في القرن الرابع الهجري، حيث كانت توجد الخلافة العباسية إلى جانب عدد من الدول المنفصلة كالحمدانية والبويهية والأخشيدية والفاطمية وغيرها(٤٧).

جماعة إخوان الصفا. وهم جماعة رفضوا الإفصاح عن أسمائهم، لكنهم صرحوا أن غرضهم صلاح الدين والدنيا والاقتداء بالحكماء. وأن مذهبهم النظر في جميع العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية، وأنهم لا يعادون علماً من العلوم ولا مذهباً من المذاهب. وقد تمكنوا إتمام ما بدأه المعتزلة، وبخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة والفلسفة اليونانية، وتوحيد الثقافة في صورة دائرة معارف.

نشر هؤلاء الجماعة عدداً من الرسائل بلغت واحداً وخمسين رسالة، تبحث في كثير من النواحي الفلسفية، حتى أصبحت أشبه بدائرة معارف عامة، وتتعرض إلى الكلام عن الرياضيات والمنطق والطبيعيات. ومن أشهر مؤلفي هذه الرسائل المقدسي، والزنجاني، والمهرجاني، والعرفي، وزيد بن رفاعة، ويدل مسلك حياتهم العملية، أنهم كانوا مشتركين في العلم والمال. وأنهم يرون أن النجاة في الآخرة لا تكون بالعبادة والأخلاق فقط، بل بالإحاطة بالعلوم والمعارف أيضاً.

ابن سينا. وقد ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب، وبخاصة في ميدان الطب

٤٦ . انور الرفاعي . المرجع السابق ص ٦٧٧ . ٦٧٨ .

٤٧ . ابن ابي اصيبعة . عيون الأنباء ص ٦٠٣ . الصفدي الوافي بالوفيات ج١ ص ١٠٦ . ١١٣ الفهرست لابن النديم ص ٣٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والفلسفة. اشتغل بكثير من الوظائف الإدارية في الدولة السامانية في بخارى. وقد اقتفى أثر الفارابي في بحث المنطق، وزاد عليه في أبحاثه في الإلهيات، وقد شرح إلهيات أرسطو، وحاول قدر المستطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة المسلمين، ولم يقيد نفسه بمذهب من المذاهب، بل كان يأخذ من كل مذهب بما يلائم تفكيره وميوله. واعتبر العقل أنه الهادي الوحيد للنفوس النافعة الإنسانية. من أشهر كتبه كتاب (الشفاء) الذي يُعد موسوعة فلسفية كبرى حوت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات والهيات، وقد ترجم إلى اللاتينية ومنها إلى بعض اللغات الأوروبية. والذي وصلنا من هذا الكتاب هو موجزه بقلمه ويسمى النجاة. وله كتاب (الإشارات) وفيه ينحو منحى الأفلاطونية الحديثة(٤٨).

ابن باجة(٤٩): فيلسوف أندلسي عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري وهو عبقري متعدد الثقافات، ألف في شتى فروع العلم ومنها الفلسفة. وكان قد درس جميع علوم اليونان، واطلع على كتب الفارابي والغزالي وابن سينا. ولم يبق من مؤلفاته الفلسفية سوى كتاب (السماع الطبيعي) وهو شرح لكتاب أرسطو (ورسالة الوداع) التي احتوت الكثير من آرائه الفلسفية. و(رسالة تدبير المتوحد) التي تعد من أهم مؤلفاته في هذا الميدان، وقد ترجمت إلى اللاتينية(٥٠).

ابن طفيل(٥١): ولد ابن طفيل في بلدة قريبة من غرناطة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، ومات في مراكش في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. ويعد ابن طفيل أحد ثلاثة فلاسفة أندلسيين: ابن باجة، ابن طفيل، ابن رشد. لم يكن ابن طفيل صوفياً ولا زاهداً متنسكاً، ولا داعياً لفكرة معينة يريد أن يشد انتباه الناس إليها. ولا هو رجل متزمت، ولا هو رجل جاحد أو ملحد ثائر على معتقداته. بل هو عالم نظري، يكتب للخاصة دون العامة، ويبحث بإخلاص عن التوفيق بين العقل والإيمان. ويعتقد جازماً، أن العقل وحده والعلم والبديهة والحدس العقلي هو الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة.

والكتاب الوحيد الذي نعرفه له هو كتاب (حي بن يقظان) وهو عمل فلسفي وأدبي وديني وتربوي ونفساني في وقت واحد. ويقول فيه، أنه عن طريق التأمل والزهد والملاحظة والحدس العقلي، يصل الإنسان إلى معرفة وجود الله. وابن طفيل يفضل الإنسان، الذي يصل إلى الاعتقاد

٤٨ ـ انظر عنه زهير حميدان ـ اعلام الحضارة العربية الإسلامية ج ١ طبعة دمشق وزارة الثقافة ١٩٩٥ ص ٣٢٩ وما بعدها.

٤٩ ـ كانت وفاته سنة ٥٣٣ هـ.

٥٠ ـ احمد بدر ـ كتاب المغرب والأندلس ص ٧٤ .

٥١ ـ كانت وفاته سنة ٥٨١ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن طريق العقل على المؤمن عن طريق التلقين. وأن الأخلاق الدينية عنده هي حرية التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة. وهو يدعو في هذا الكتاب إلى الحب والخير والأصالة والجمال والإيمان بالله(٥٢).

ابن رشد(٥٣): وهو أكبر فلاسفة العصور الوسطى باطلاق. وهو تلميذ ابن طفيل وقد وصف بأنه أكبر شارح لفلسفة أرسطو، ويكفي ابن رشد فخراً أنه تجرأ على إطلاق حرية الفكر لنفسه ونادى بها للجميع، على الرغم من وجوده في عصر كان مثل هذا الفكر يجلب لصاحبه المذلة والمهانة والتحقير، وقد عانى من ذلك كثيراً، لكنه مضى على طريقته الرائعة، فأعلن آرائه بصراحة وقوة، حتى اعتبره الأوروبيون مثلاً خالداً على حرية الفكر، وقد عبَّر عن أفكار أرسطو تعبيراً صادقاً بإعلانه أن العقل العام المطلق أبديّ قابل للانفصال عن الجسم، وأنكر الخلود والبعث،وقال يجب على المرء أن لا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه في الحياة الدنيا.وتعرض للفلسفة الخلقية والاجتماعية، فأعلن كرهه للظلم والاستبداد ورأى عدم وجود خلاف بين الرجال والنساء في الطبع، إنما الاختلاف بينهما في الكم ولشدة ما تأثر به الأوروبيون قالوا عنه، أنه ينتسب إلى أوربة، والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر العربي الإسلامي. وبذلك أقدم الأوروبيون على دراسة فلسفة ابن رشد، ورحبوا بكتبه ترحيباً كبيراً، فأسهمت بإخراجهم من القرون المظلمة.

وقد أثرت فلسفة ابن رشد في الأوروبيين إلى حدٍ أن كثيراً منهم خرجوا على تعاليم الكنيسة، وتمسكوا بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على اساس المشاهدة والتجربة التي نادى بها ابن رشد(٥٤).

وفي فترة حكم الأيوبيين والمماليك في المشرق العربي، وفي فترة الدول المنفصلة التي ظهرت في المغرب بعد سقوط دولة الموحدين، فإن الفلسفة كعلم يفتح الأبواب أمام العلوم الأخرى، توقف بشكل نهائي، ذلك لأن هذه الفترة اختلفت عن الفترات السابقة، في أن سيطرة رجال الدين كانت محكمة فيها، وقد تمكنوا من إقناع الحكام بخطورة علم الفلسفة على الدين، وقد تبنى هذه الفكرة نور الدين محمود زنكي، وتبعه صلاح الدين الأيوبي، الذي قام بتنفيذ عملية قتل الفيلسوف السهروردي صاحب كتاب (حكمة الإشراق). وكثيراً ما حل الفقهاء ورجال

٥٢ . عمر فروخ . المرجع السابق ص ٢٩٠ محمد احمد المليجي . مجلة العربي ص ١٤٥ جورج حداد . المدخل إلى تاريخ الحضارة ص ٥٢٧ .

٥٣ . توفي سنة ٥٩٥ هـ في عصر الموحدين.

٥٤ . ابن رشد . كتاب الكليات ص ١١ . ١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدين محل الحكام في التصدي للفلسفة، مثال ذلك تقي الدين بن الصلاح، الذي كان لا يمكن أحداً في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة ويؤيده في ذلك الحكام(٥٥).

ولم يتغير الأمر في فترة حكم المماليك، وبقي أمر الفلسفة من الأمور الممنوعة على اعتبارها مكمن خطر في نظر الجميع. وكان لمحاربة الفلاسفة وعلماء الكلام في العصرين الأيوبي والمملوكي أثر بالغ الضرر على حركة الإبداع بوجهٍ عام. فحينما كان الاشتداد في إرهاق رجال هذا العلم في قمة نشاطه وأوجه، كان الجميع يشتدون في التهافت على اجترار العلوم الدينية والإقبال عليها بشكل لا مثيل له(٥٦).

وقد ساد جو مشابه في المغرب والأندلس حتى نهاية العصور الوسطى لأن الفقهاء هناك أيضاً، وجدوا بالفلاسفة أداة تهدد مصالحهم الدنيوية، كونهم لا يستطيعون مجاراة رجال الفلسفة في مجال الخلق والإبداع، لما اتصفوا به من جمود فكري وتقوقع مزمن في زوايا الظلام، فاستغلوا بذلك جهل الحكام بالإسلام كدين يؤمن بالتطور والتقدم، فصوروا لهم الفلاسفة على أنهم دعاة فِرقة وشتات وبالتالي فهم أخطر على البلاد من الأعداء(٥٧)

---

٥٥ ـ النعيمي الدمشقي ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١ .

٥٦ ـ كرد علي ـ خطط الشام ج ٤ طبعة دمشق ١٩٢٦ ص ٥٥ .

٥٧ ـ انظر عن ذلك تفاصيل واسعة في كتابنا الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ٢٢١ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

العلوم الاجتماعية

وتشمل بشكل خاص، التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع وما يتصل بها. وسنقوم بدراسة كل منهما بشكل منفصل عن الآخر.

١ ـ التاريخ:

التاريخ من العلوم التي اشتهر بها العرب، وأجادوا الكتابة فيها منذ وقت مبكر إلى حدٍ ما. والتاريخ في اللغة التعريف بالوقت. أرخ الكتاب وورخه أي بيّن وقت كتابته. وتاريخ الشيء وقت حدوثه. وعلم التاريخ بشكل عام، هو العلم الذي يتضمن ذكر الوقائع وأوقاتها وأسبابها، ومظاهر الحضارة، وعوامل سقوطها واضمحلالها. وربط العرب التاريخ بكل العلوم، كالأدب والسياسة والاجتماع والفقه والجغرافية والرحلات، والعلوم الأخرى الطبيعية، فكان بحق علم العلوم.

تعرض القرآن الكريم لأخبار الأمم القديمة وأحوالها، فزادت مادتهم في معرفة التاريخ، وجاء ذكر الأخبار في القرآن مقتطباً دون تفصيل، لأنه أوردها في سبيل القصة لا في سبيل الشرح التاريخي.

ومع الفتح اطلع العرب الفاتحون على أحوال الأمم الأخرى، وسمعوا أخبارها السالفة. وزادت مع الزمن مادة التاريخ الإسلامي، من أخبار الرسول وأعماله وأقواله، إلى أخبار الراشدين، وأخبار الفتوح وما جرى فيها من حوادث، وأخبار الفرق التي تنازعت للوصول إلى الحكم. ولما جاء عصر التدوين اهتم العرب بتدوين التاريخ لأسباب عديدة، منها رغبة العرب في معرفة تاريخهم السياسي وسيرة زعمائهم. ورغبتهم في معرفة كل ما يتصل بحياة الرسول العربي الكريم (ص) من أعمال وأقوال، ليستعينوا بها على تفسير القرآن. وكذلك الرغبة في معرفة أنساب القبائل العربية وعلائقها مع بعضها، وأنساب كثير من الأسر التي ازداد تمسكها بعروبتها وفخرها بذلك، مع زيادة الحركة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعوبية. كما أن تشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب بتسجيل حوادث زمانهم لتطلع عليها الأجيال التالية، ساهم بذلك ودفعه قدماً إلى الأمام. يضاف إلى ذلك، الرغبة العلمية، التي سيطرت على كثير من علماء الأدب، وأهابت بهم إلى الإقبال على العلم للعلم، لا لنفع مادي أو معنوي، فدون بعضهم أخبار التاريخ لهذه الغاية النبيلة فقط دون أن يتأثروا بإرضاء الطبقة الحاكمة أو فئة سياسية أو دينية معينة، ولهذا كانت أبحاثهم أكثر موضوعية وتجرداً من غيرها(١).

وكانت المؤلفات التاريخية على عدة أنواع، من حيث الأسلوب الذي اختاره المؤلفون فيها. وهي:

١ ـ السيرة والمغازي:

وتبحث كتب المغازي في غزوات الرسول (ص) والحروب التي اشترك فيها هو وأصحابه. أما كتب السيرة فتبحث في شخصية الرسول (ص) وأقواله وأفعاله وما شهده. وباختصار تتعرض هذه الكتب إلى جميع جوانب سيرة الرسول (ص) في جميع مراحل حياته، الخاصة والعامة. وتوسع الكتاب في العصر العباسي في السيرة، فأضاف المؤرخون أبحاثاً جديدة، هي الحروب التي خاضها الصحابة بعد وفاة الرسول (ص) فذكروا معارك القادسية واليرموك، وذكر الحروب الأهلية كالجمل وصفين. ومن أشهر من كتب في هذا المجال:

محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥٢ هـ/٧٧٠ م، الذي يُعد كبير مؤرخي السيرة والمغازي. وكتابه المغازي، المعروف باسم سيرة ابن اسحق، هو أول وأقدم، ما وصل إلينا كاملاً من تأليف مؤرخي نهاية القرن الأول ومطلع الثاني الهجري، هذا على الرغم من نقص سيرة ابن اسحق التي بين أيدينا، والتي ليست في الواقع سوى تهذيب ابن هشام لهذه السيرة، عما تضمنته السيرة الأصلية، التي أنجزها ابن اسحق وقدمها إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، لتكون أساساً لثقافة ولي عهده المهدي التاريخية، لا سيما وأن المنصور طلب من ابن اسحق أن يشمل الكتاب الذي سيضعه أخبار العالم منذ خلق الله آدم إلى أيامه(٢).

محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣ م. ألف كتاباً في المغازي واعتبر هذا الكتاب فتحاً جديداً في تأليف التاريخ، ذلك لأن الواقدي كان يحقق ويدقق في الحادثة، التي يكتب عنها، وكثيراً ما كان يعاين بنفسه المواضع التي جرت فيها غزوات الرسول (ص) ويفحصها بدقة(٣).

١ ـ نور الدين حاطوم ومجموعة، المدخل إلى التاريخ طبعة جامعة دمشق ١٩٦٥ ص ١٣ وما بعدها.

٢ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

٣ ـ ابن النديم ـ الفهرست ص ١٥٠ ـ ١٥١ دائرة المعارفة الإسلامية ج ٤ ص ٤٨٧ ـ ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م، واسمه فتح الدين محمد بن أبي بكر محمد اليعمري الأندلسي، وهو من الأندلسيين الذين نزلوا القاهرة ودرس فيها. واسم كتابه (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير). ويعتمد هذا الكتاب على أصح ما ورد في المغازي والسيرة وأن ابن سيد الناس هو رجل متخصص في علم السير، وأنه قلّ من يوازيه في نقد ذلك العلم بين المتقدمين فضلاً عن المتأخرين، وأنه خبير باستخلاص الحق الصريح من كتب المغازي والسير(٤).

٢ ـ كتب الطبقات:

وهي الكتب التي تتناول تاريخ فئة من المجتمع، اهتم رجالها بعلم من العلوم، كالأطباء والنحويين، أو تاريخ رجال مذهب من المذاهب الدينية إلى غير ذلك. وهذه المجموعة من المصادر التاريخية كثيرة إلى حدٍ ما، وبالتالي فهي مفيدة في التعرف على كثير من الأمور التاريخية المتنوعة. ومن أشهر كتب هذا النوع من الكتب التاريخية، كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، ويشمل عدداً كبيراً من العلماء، ولا سيما المهتمون منهم بالعلوم الدينية، وقد صنفه على أساس إتقان العلماء لعلمهم ومدى هذا الإتقان. وكتاب (طبقات الأمم لصاعد الأندلسي) الذي ذكر فيه علماء جميع الأمم القديمة حتى عصره. وكتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م وهو أكمل مؤلف عن الأطباء في العصور الوسطى، أرخ لهم في هذا الكتاب منذ فترة ما قبل الإسلام، حتى فترة قليلة سبقت وفاته. ويتبع في هذا الكتاب مبدأ التسلسل الزمني(٥) وفي طبقات الشعراء ألف محمد بن سلام الجمحي، الذي عاش في القرن الثالث الهجري، فوضع كتاباً في هذه الطبقة، سماه طبقات الشعراء. وفي النحويين ألف ابن قاضي شهبة المتوفى سنة ٨٥١ هـ/١٤٤٧ م وما زال هذا الكتاب دون تحقيق، وتوجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق. وفي طبقات القراء ألف محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ/١٤٣٠ م. ويذكر الجزري في هذا الكتاب، القراء الذين كان لهم معرفة بعلوم القرآن، والذين درسوا مواد أخرى كالنحو أو غيره، وهو مرتب على حروف المعجم.

٣ ـ كتب فتوح البلدان:

ويدرس فيها المؤرخون سائر الفتوحات العربية الإسلامية، أو فتح بلد من البلدان. وسنقتصر على ذكر كتابين فقط هما:

---

٤ ـ انظر عنه كتابنا، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق. طبعة دمشق دار شمال ١٩٩٥ ص ١٤٢ وما بعدها. دائرة المعارف الإسلامية ج١ ص ٢٠١ .

٥ ـ انظر عنه كتابنا، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام طبعة دمشق دار طلاس ١٩٨٩ ص ٢٣ . دائرة المعارف الإسلامية ج١ ص ٦٩ ـ ٧١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ/٩٨٣ م، الذي يُعد من الأسفار القيمة، التي زخرت بها خزانة الكتب العربية. وفي هذا الكتاب تعرض البلاذري على سبيل المثال لفتح مكة والطائف ولغزوات الرسول الأخرى ولحروب الردة، وفتح الشام والجزيرة وأرمينية ومصر والمغرب. وأنهى كتابه هذا بإيراد أخبار فتح العراق وفارس(٦).

وكتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ/٨٧٢ م ويتألف من سبعة أجزاء، حتى الخامس منها يتناول تاريخ مصر القديم والإسلامي، أما السادس فيخصصه على قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ، أما الخامس فخصصه لتاريخ المغرب والأندلس، أما السابع فخصصه لرواية الأحاديث التي رواها الصحابة الذين قدموا مصر(٧).

٤ ـ كتب التاريخ العام:

وتدرس التاريخ العام منذ بدء الخليقة حتى عصر الكاتب. وقد بدأ المؤرخون بكتابة هذا النوع من كتب التاريخ منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وقد ضمنوا كتبهم تاريخ العرب وغير العرب. وقام عملهم على التوفيق بين ما استمدوه من كتب السيرة والتآليف التاريخية الأخرى، ثم سعوا لإدماج كل ذلك في رواية تاريخية متماسكة. من أشهر من كتب في هذا المجال:

محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ/٩٢٣ م الذي ألف كتاب (تاريخ الرسل والملوك) وهو بمثابة تاريخ عام للعالم، أفاد كثيراً من المادة التاريخية التي جمعها مؤرخو القرن الثاني. وقد تأثر الطبري في هذا الكتاب بأسلوب المحدثين، الذي كان من أكبرهم في عصره. ولعل أبرز ما ظهر على أسلوب الطبري في هذا التاريخ من أثر المحدثين ذكره الروايات المختلفة والأخبار التاريخية. وقد تمكن ببراعة من الربط بين هذه الروايات المختلفة.

المسعودي أبو عبد الله الحسن بن علي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ/٩٥٧ م، الذي ألف عدة كتب منها على سبيل المثال كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، الذي يظهر فيه المسعودي واسع حدود المعرفة، متعدد جوانب التفكير باحثاً جغرافياً ومؤرخاً إخبارياً، ومتكلماً جدلياً، ملماً بالعقائد المختلفة، وفقيهاً محدثاً، وأديباً بارعاً طريف النوادر شائق الأخبار، واضح الحجة، ليس في أسلوبه السهل المتدفق غموض ولا خفاء ولا إملال، بل فيه سلاسة، وبلاغة غير متكلفة. ويؤرخ في هذا الكتاب منذ المبدأ أو الخليقة إلى سنة ٣٣٠ هـ.

٦ ـ المدخل إلى التاريخ ص ٢٥٩ .

٧ ـ المرجع نفسه ص ٢٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن الأثير علي بن أبي الكرم الجزري المتوفى سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م، الذي ألف كتاباً كبيراً هو (الكامل في التاريخ) بدأه منذ الخليقة، وبلغ فيه سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١ م، وهو مرتب على النظام الحولي، يجمع الحادثة في مكان واحد، حتى لا يجعلها مضطربة. ويؤرخ للحوادث الصغيرة والوفيات في آخر كل سنة، ولا وجود للسند عنده. ويعد هذا الكتاب من أحسن ما ألف في التاريخ العام باللغة العربية. ولئن اشترك ابن الأثير مع الطبري، وغيره في إيراد أخبار ثلاثة القرون الأولى للإسلام، فإنه أضاف كثيراً من المعلومات التي انفرد بها في فترة ثلاثة القرون الثانية، لا بل شمل الكتاب معلومات هامة جداً عن الأندلس والمغرب(٨).

يوسف بن قزاوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م بدأ فيه منذ الخليقة وانتهى عند سنة وفاته. وهو مرتب على نظام الحوليات، فهو يتكلم عن أحداث كل سنة على حدة، مستعرضاً الأحداث الهامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والوفيات إلى غير ذلك.

اسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م. ويؤرخ للفترة منذ بدء الخليقة حتى سنة ٧٦٧ هـ/١٣٢٧ م في كتاب ضخم سماه (البداية والنهاية) واتبع فيه الترتيب الحولي، وركز على الأحداث الهامة والبارزة، كما قام بعرض الوفيات في نهاية كل سنة، وهنا يلاحظ أن الترجمة تطول أو تقصر بحسب أهمية الشخص المترجم له(٩).

وهناك لائحة كبيرة من هذه الكتب مثل، كتاب (تجارب الأمم) لابن مسكوية، وكتاب (الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية) لابن الطقطقي، وكتاب (مختصر تاريخ الدول) لابن العبري، وكتاب (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل، وكتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) لليافعي اليمني المكي إلى غير ذلك.

وتتضمن كتب التاريخ العام معلومات وإشارات كثيرة ومتنوعة، عن بقاع واسعة في العالم في الفترة القديمة والوسيطة، وهي أغنى الكتب التاريخية على الإطلاق وأحفلها بالفوائد.

٥ ـ كتب التراجم:

وهي ليست في الواقع سوى معاجم تراجم العلماء ومشاهير الرجال، سواء الذين نشأوا في مدينة واحدة أم في إقليم واحد. واعتنت كتب التراجم بصورة عامة بطريقة الإسناد، وأرخت للحوادث وبخاصة تاريخ الوفاة وسائر ما يتعلق بحياة المترجم له، مع الإشارة إلى الكتب التي

٨ ـ انظر عن هذه الكتب كتابنا، الأندلسيون والمقاربة في بلاد الشام ص ٢٧ ـ المدخل إلى التاريخ ص ٢٩١ وما بعدها.

٩ ـ انظر كتابنا، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألفها المترجم له إن كان هذا الأخير مؤلفاً، لكن مؤلفي التراجم لم يراعوا في ترتيب مادة كتبهم التاريخ أو الموضوع، فجاءت معلومات كتبهم مفككة مضطربة. لكن ذلك لا يجعل هذا الفرع من فروع التأليف التاريخي، يُعد مكملاً قيماً لنوع آخر من التأليف هو كتب الحوليات السياسية التي تناولت التاريخ العام، ومصححاً لما ورد فيها من أغلاط، وذلك بنتيجة الصلة الوثيقة التي لكتب التراجم بحياة الناس.

بدأت كتب التراجم تظهر في المشرق العربي منذ فترة مبكرة، تعود إلى نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجري، على يد مؤرخ بارع هو ابن عبدوس الجهشياري الذي ألف كتاب تاريخ الوزراء والكتاب ثم ظهر بعد ذلك الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ/ن الذي ألف تاريخ وزراء الدولة الفاطمية. وفي الأندلس بدأت كتب التراجم تظهر منذ القرن الرابع الهجري، فكتب محمد الحارث الخشني كتاب (قضاة قرطبة) وكتب ابن الفرضي كتاب (تاريخ علماء الأندلس) وهو عدة تراجم لفقهاء ورواة وأدباء وشعراء، منذ فتح العرب الأندلس حتى قبل سنوات قليلة من وفاته.

حذق مؤرخو هذا النوع من التاريخ، عملية التبويب والترتيب، وكانوا على العموم في عصر النضج العلمي، فوضعوا كتب التراجم وتناولوا فيها دراسة سير العلماء والأدباء والخلفاء وسواهم، مستفين أشياء كثيرة من مادة كتبهم من كتب الطبقات. وقد رتبوا كتبهم على حروف المعجم. وأهم من ألفوا في هذا الباب من مؤرخي المشرق:

ابن خلكان أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م قام بتأليف كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) حينما كان في القاهرة سنة ٦٥٤ هـ، لكنه ترك العمل عندها وولي القضاء بدمشق، ثم عاد للعمل فيه وأنجزه سنة ٦٧٢ هـ. ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي. وركز بشكل خاص على المشاهير من الحكام والوزراء والعلماء في المشرق والأندلس.ويعتمد على مصادر كثيرة مشرقية وأندلسية، كابن شداد، والعماد الكاتب الأصفهاني، وابن الأثير، وابن بشكوال وغيرهم(١٠).

ياقوت الحموي شهاب الدين المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م، الذي ألف كتاب معجم الأدباء ومعجم البلدان. ففي معجم الأدباء، فقد جمع ياقوت الحموي أخبار النحويين واللغويين والناسبين والقراء المشهورين والأخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب المعروفين وأصحاب الرسائل

١٠ ـ النعيمي الدمشقي ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ طبعة دمشق ١٩٤٨ ص ١٩١٩ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكل من ألف في الأدب. وذكر تصانيف الذين ترجم لهم، وأهم أخبارهم والمختار من شعرهم والأجود من نثرهم إلى غير ذلك(١١).

ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م الذي ألف كتاب (الصلة في تاريخ أئمة الأندلس) وهو عبارة عن معجم ذكرت فيه سير علماء الأندلس، ويُعد تكملة لكتاب ابن الفرضي الآنف الذكر. وتغطي تراجمه في هذا الكتاب القرن الخامس الهجري(١٢).

وقد ألف ابن الآبار محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١ م تكملة لهذا الكتاب سماها (التكملة لكتاب الصلة) غطى فيها رجال القرن السادس وثلثاً من القرن السابع الهجري(١٣).

علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م الذي ألف كتاب (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) جمع فيه القفطي الأطباء والفلاسفة من العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، منذ أقدم العصور حتى زمانه. ويُعد من الكتب الفريدة في بابه، ويمتاز بأنه يفصل في ترجمة كل شخصية بما أمكنه ذلك(١٤).

محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٤٠٤ م، الذي ألف كتاب (الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة) وهو كتاب تراجم مرتب على حروف المعجم، يتناول فيه المراكشي رجال القرن السابع الهجري من الأندلسيين وغيرهم من الغرباء الذين دخلوا الأنلدس، ويمتاز بشكل خاص عن كتب التراجم الأندلسية، بأنه يميل إلى التطويل والإسهاب في الترجمة. ومعظم الأجزاء التي عثر عليها من هذا الكتاب مطبوعة ومحققة، وهي ثلاثة أجزاء(١٥).

صلاح بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م، الذي ألف كتاب (الوافي لوفيات) وهو من الكتب المهمة في ميدان التراجم، اقتصر فيه الصفدي على ترجمة الأعيان من الحكام والعلماء والإداريين البارزين في المشرق والمغرب والأندلس. وقد رتبه على نظام حروف المعجم بادئاً بحرف الميم، تبركاً باسم الرسول العربي الكريم (ص). وقد ذيل عليه الصفاعي

١١ . المدخل الى التاريخ ص ٢٨٢ . ٢٨٣ .

١٢ . انظر عنه كتابنا، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ١٥ .

١٣ . ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة ج ٢ طبعة مصر ١٩٥٦ ص ٦٣٧ .

١٤ . القفطي . إخبار العلماء باخبار الحكماء طبعة مصر ١٣٢٦ هـ ص ١ .

١٥ . انظر كتابنا، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ١٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاباً سماه (تالي وفيات الأعيان) ووصل فيه إلى سنة ٧٢٥ هـ، وذيل عليه أيضاً الكتبي في كتاب سماه (فوات الوفيات)(١٦).

وهناك الكثير من كتب التراجم غير التي ذكرت، مثل كتاب (جذوة المقتبس) للحميدي الأندلسي، وكتاب (بغية الملتمس) للضبي الأندلسي، وكتاب (أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن) لابن الأحمر، وكتاب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر العسقلاني، وكتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) للسخاوي إلى غير ذلك.

٦ ـ كتب الموضوعات والبلدان:

عني كثيرون من مؤرخي العرب المسلمين بتأليف كتب، تناولوا فيها تاريخ قطر من الأقطار العربية الإسلامية أو تاريخ بلاد أخرى أو الترجمة لبعض مشاهير الرجال أو الدول. ومؤرخو هذا الشأن كثيرون يمكن أن نذكر بعضهم على سبيل المثال.

الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م ألف كتاب (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) وهو من أهم المصادر، التي لا غنى عنها في دراسة تاريخ الدولة العباسية في فترة نيّفت على ثلاثة القرون، وذلك بين شروع الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ببناء بغداد سنة ١٤٥ هـ، ووفاة الخطيب البغدادي. ويشمل هذا الكتاب وصفاً مستفيضاً لسير من تعاقب عليها من خلفاء ومن عاش فيها من الأمراء والوزراء أو زارها أو غادرها من أولي العلم والفضل.

ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦ م وهو صاحب كتاب (تاريخ دمشق) جمع فيه تراجم كل الرجال، الذين كانت لهم صلة بتلك المدينة مقتدياً في ذلك بطريقة الخطيب البغدادي في كتابه الآنف الذكر. وقد بلغ الثمانين مجلداً، وقد طبعت منه بعض أجزائه.

المقريزي تقي الدين أحمد صاحب كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) وفيه أخبار سلاطين المماليك. وله كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار). ويعد من أهم المصادر في تاريخ مصر السياسي والديني والإداري والتجاري.

ابن عذاري المراكشي أبو عبد الله محمد الذي عاش في القرن السابع الهجري/الثالث الميلادي. ألف كتاباً شهيراً سماه (البيان المغرب في أخبار المغرب). ويشمل أخبار المغرب والأندلس. ويُعد من

١٦ ـ الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج٤ ص ١٧٤ الصقاعي ـ تالي كتاب وفيات الاعيان ص ١ ـ الكتبي ـ فوات الوفيات ج١ ص ٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهم الكتب التي أرخت لأخبار المغرب والأندلس على الصعيد السياسي والاجتماعي والإداري، وكذلك الحروب التي دارت بين العرب والفرنجة أو بين العرب أنفسهم، وذلك حتى سنة ٦٠٢ هـ بالنسبة للمغرب. أما فيما يتعلق بالأندلس فقد توقف عند أخبار سنة ٣٨٧ هـ.

وتوجد كتب كثيرة أخرى غير التي ذكرت مثل، كتاب (فضائل مصر وأخبارها وخواصها) لابن زولاق، وكتاب (بوائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس، وكتاب (نفخ الطيب من غصن الأندلس الطيب) للمقري التلمساني، وكتاب (النجوم الزاهرة) لابن تغري بردي الأتابكي وغيرها.

٢ ـ الجغرافية:

كانت الجغرافية في مقدمة العلوم التي أولاها العرب شيئاً كثيراً من اهتمامهم، فكثرت مصنفاتهم وكتبهم فيها، ولا تزال هذه المصنفات وإن بَعُدَ بها العهد تمثل مرحلة بارزة في تاريخ الفكر الجغرافي وتطوره، وبخاصة إذا نظرنا إليها على ضوء الأحوال العالمية، التي كانت سائدة في الوقت الذي وضعت فيه.

وكانت عناية العرب بالجغرافية وليدة ظروفهم البيئية، إذ لم يكن بمقدورهم أن يقوموا برحلاتهم في الصحارى المترامية الأطراف، إلا إذا عرفوا الشيء الكثير عن النجوم والكواكب، ليهتدوا بواسطتها. لذا نرى بأن كثيراً من المعارف الجغرافية قد انتشرت بين عرب الجاهلية، وبخاصة ما يتعلق بالأنواء والاهتداء بالنجوم لمعرفة الجهات، ومسالك الطرق الصحراوية والتجارية. ولم يمض وقت طويل على ظهور الإسلام، حتى كانت الدولة العربية الإسلامية قد اتسعت فشملت مساحات كبيرة في آسيا وإفريقية وأوروبا، وأدى هذا التوسع إلى زيادة أهمية المعلومات عن أطراف الدولة العربية الإسلامية، وغدا من الضروري معرفة أحوال البلاد التي فتحها العرب، ومعرفة الطرق التي تربط بين أجزاء هذه الدولة. فقد كانت السياسة والإدارة والتجارة وما إليها، تتطلب وصفاً دقيقاً للأمكنة والمناطق ومن قبل كان الحج يتطلب معرفة بطرق القوافل إلى مكة والمدينة.

ولما استقر أمر العرب بعد أن انتهى زمن الفتح، أخذوا ينصرفون إلى الثقافة ويعملون من أجلها، وبخاصة أيام خلفاء بني العباس الأوائل، وراحوا ينقلون إلى العربية أمهات الكتب المعروفة في اللغات الأخرى، فاستخدموا المترجمين من كل الجنسيات، وبلغت النهضة العلمية ذروتها في عصر الخليفة المأمون العباسي(١٧).

١٧ . محمد محمود الصياد . في الجغرافيا . بحث ضمن كتاب اثر العرب والإسلام في النهضة الاوروبية ص ٢٨٣ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ركز العرب اهتمامهم في البداية على الجغرافية الفلكية، لإتصالها بمواقيت الصلاة والصيام والحج. وقد جاءت هذه الجغرافية إلى العرب، عن طريق المذهب الهندي في الجغرافية الرياضية من طريق الفرس متمثلاً في كتاب (السند هند). وعن طريق المذهب اليوناني من طريق السريان متمثلاً في كتاب (المجسطي)(١٨) وسيطر هذا المذهب على العرب في مجال الجغرافية. وفي أيام المامون صنع الجغرافيون العرب صورة للأقاليم (خارطة) ظهرت عليها المناطق والبلدان موقعة بأسمائها العربية. ثم ألفوا في مجال الأنواء، ومن أقدم المؤلفين في هذا الشأن، النصر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤ هـ/٨٢٠ م وله كتاب الأنواء والشمس والقمر. كما ألف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ/٨١٠ م وأبو حنيفة الدنيوري المتوفى سنة ٢٧٢ هـ/٨٩٥ م، واسم كتابهما (الأنواء).

ثم بدأت بعد ذلك المؤلفات الجغرافية تظهر إلى الوجود فقد ألّف ابن حوقل في مجال المسالك والممالك والمفاوز والمهالك وهي ما شاهده في رحلته من العراق إلى الشام وجزيرة العرب ومصر والمغرب والأندلس وصقلية. ويسمى هذا الكتاب عادة بصورة الأرض تكلم فيه على جميع أقسام الأرض المأهول وغير المأهول، وركز اهتمامه على مواطن الحضارات في الشرق والغرب. وابن حوقل أول من وفّى أفريقية والمغرب والأندلس حقها في الدراسة حيث عاش مدة طويلة في المغرب والأندلس أيام عبد الرحمن الناصر لدين الله(١٩).

وقبله كان ابن خرداذبة المتوفى سنة ٣١٢ هـ/٩٢٤ م، الذي ألف كتاباً سماه أيضاً (المسالك والممالك) ذكر فيه الطرق التي كان يسلكها التجار والحجاج في العالم العربي، وفي نواح كثيرة خارج هذا العالم في البر والبحر، كما يصف المنازل والمحطات على جوانب هذه الطرق. وتمتد هذه الطرق التي يصفها ابن خرداذبة من أواسط أوروبا غرباً إلى الصين شرقاً.

إضافة إلى كتب المسالك، فقد ظهرت منذ القرن الثالث الهجري أيضاً، الكتب التي حملت اسم (البلدان) وهي لا تختلف كثيراً عن الكتب التي تسمى المسالك والممالك. ومن رواد هذا الصنف:

البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م، الذي ألف كتاباً مشهوراً هو (فتوح البلدان) لكن الجانب التاريخي يغلب على الجانب الجغرافي، ومع ذلك فإنه يحتوي على أشياء كثيرة من الحياة الحضارية ووصف البلدان. ومن كبار الجغرافيين ومشاهيرهم المقدسي المتوفى ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م

١٨ ـ ابن النديم ـ الفهرست ص ٢٥٥ .

١٩ ـ هو اول خليفة اموي بالأندلس حكم من ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو صاحب كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). وقد حرص أن يذكر في هذا الكتاب جميع الأمور الموثوقة، وما أغفله الأقدمون في كتبهم، كما أحب أن يعتمد على ما رآه وعرفه بنفسه، وأن يعزف عن النقل ما أمكن من كتب الآخرين. وجغرافية المقدسي جغرافية وصفية لسطح الأرض والأقاليم والأقسام السياسية، وذكر المسافات وطرق المواصلات، وقلما تعرض للجغرافية الطبيعية كالكلام على الجبال والأنهار، ولكنه يكثر التفصيل في الجغرافية البشرية، فيبحث في المناخ والمزروعات، وطوائف الناس واللغة والتجارة والأخلاق والعادات والأحوال السياسية والضرائب والأماكن المقدسة(٢٠).

وفي الرحالة العرب يلمع اسم أحمد بن فضلان، الذي ذهب في سفارة وجهها الخليفة المقتدر إلى بلاد الترك وبلاد الخزر وبلاد الصقالبة والروس، فخلف لنا رسالة وصفت أحوالاً طبيعية واجتماعية في بقاع من الأرض قلّ الذاهبون إليها(٢١).

والمسعودي صاحب كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وكتاب (التنبيه والإشراف) من أكابر المؤرخين، ومع أن كتابيه هذين في التاريخ، فإن فيهما أشياء كثيرة قيمة في الجغرافية. فالمسعودي واسع الاطلاع، دقيق الملاحظة في ما يقرأ وما يشاهد، حسن التنظيم لمواد كتبه. وقد وصف في المروج الزلزلة التي وقعت سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وسقطت من جرائها منارة الاسكندرية، كما وصف البحر الميت واشياء أخرى بطبقات الأرض وفي كتاب (التنبيه والإشراف) أشياء من الجغرافية الإنسانية، وإشارات إلى أحوال العمران. وهذا فن من فنون المعرفة وضع أسسه ورتب قواعده في ما بعد، عبد الرحمن بن خلدون. ويذكر أيضاً أثر المناخ من حرارة وبرودة، واختلاف منازل الناس من أقسام الأرض في ألوان البشر وفي النشاط الجسماني وفي الذكاء(٢٢).

أما في المغرب والأندلس فقد تأخر التأليف في الجغرافية، فلسنا نعرف أحداً اشتغل بالجغرافية قبل أحمد بن موسى الرازي المتوفى سنة ٣٢٤ هـ/ ٦٣٦ م، فإن له كتاباً عنوانه (في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها). وكذلك ألف أبو عبد الله محمد بن يوسف الوراق الحجاري المتوفى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م كتاباً في (مسالك إفريقية وممالكها).

وأول الجغرافيين الكبار في الأندلس، كان أبا عبيد عبد الله البكري المتوفى ٤٨٧ هـ/١٠٩٤

٢٠ . عمر فروخ . المرجع السابق ص ١٩٧ .

٢١ . احمد بن فضلان . رسالة ابن فضلان تحقيق سامي الدهان طبعة دمشق ١٩٦٠ ص ٧٣ .

٢٢ . عمر فروخ . المرجع السابق ص ٢٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

م. فقد ألف كتابين أحدهما عنوانه (المسالك والممالك) يشبه كتب أهل المشرق المعروفة بمثل هذا الاسم. ويبدو البكري في هذا الكتاب عارفاً بالطرق البرية والبحرية وبالمرافئ والخلجان معرفة جيدة. وأما الكتاب الثاني فهو (معجم ما استعجم) وهذا الكتاب مرتب على حروف الهجاء، وغايته أن يثبت أسماء الأماكن صحيحة بعد أن تسرب إلى عدد كبير منها شيء من التحريف والتبديل(٢٣).

أما أشهر جغرافيي الأندلس فهو الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٠ م، الذي ولد فيما يبدو في سبتة بشمال المغرب الأقصى، وتلقى علمه في قرطبة، ثم سكن الأندلس مدة طويلة وطاف بها بعدئذ انتقل إلى جزيرة صقلية، واتصل بملكها رجار(٢٤) وألف له كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ويعرف بالكتاب الرجاري، لأن رجار هو الذي أراد تأليف هذا الكتاب فألفه الإدريسي له.

وكتاب (نزهة المشتاق يتكلم على أقاليم العالم كلها، وهو يتفوق على ما سبقه من كتب الجغرافية، بما فيه من التفصيل في وصف أوروبة كلها. وبما رافقه من خرائط كثيرة ودقيقة، توضح جانباً من مواقع الأماكن الواردة في الكتاب(٢٥).

وقد اهتم العرب في أعمال الرحلة منذ وقت مبكر، وكان الأندلسيون والمغاربة هم رواد هذا الميدان بشكل عام. فقد وصل بعضهم إلى أماكن نائية في الشرق والغرب، وسجلوا كثيراً من المعلومات عن البلدان التي قصدوها، كانت عظيمة الأهمية في العصور التي خلت وما زالت حتى اليوم. ففي عصر الخلافة بالأندلس، ظهر أول رحالة من هذا القبيل، هو ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي، الذي رحل إلى عدة بلدان في أوروبا وعاد إلى الأندلس سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م، ليكتب عن مشاهداته في وصف مدن ساحلية أوروبية من فرنسا وهولندا وألمانيا، وعن إمارات الصقالبة في بلغاريا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا، وعما شاهده أيضاً من تجار وعمليات تجارية في جنوب بحر الخزر(٢٦).

جاء بعده الرحالة أبو حامد الغرناطي، الذي زار المشرق العربي لفترة قصيرة، حيث زار

---

٢٣ ـ احمد بدر ـ تاريخ الأندلس طبعة دمشق ١٩٨٣ ص ٣٣ وما بعدها.

٢٤ ـ حكم صقلية من ٥٦٢ ـ ٥٨٥ هـ/ وفي عصره ازدهرت الثقافة العربية في بلاده ازدهاراً كبيراً حتى اتهمه نفر من اتباعه بالإرتداد عن المسيحية.

٢٥ ـ عمر فروخ ـ المرجع السابق ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

٢٦ ـ احمد بدر ـ تاريخ الأندلس ص ٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسكندرية والقاهرة ودمشق والموصل في سنة ٥١٢ هـ/١١١٩ م فوصف بعدها مشاهدهما وفيضان النيل والأهرامات. أما معظم حياته فقد أمضاها في خوارزم وجنوب الاتحاد السوفييتي سابقاً والمجر. وألف كتابه المشهور (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) عن مشاهداته في هذه البلاد، فذكر أشياء من الجغرافية الوصفية والبشرية، وأشار إلى أشياء من الجغرافية الوصفية والبشرية، وأشار إلى أشياء لها صلة بطبقات الأرض وعلم الحياة، فهو يتكلم مثلاً على صفة البحار وعجائب حيواناتها، وما في جزائرها من النفط وغيره، كما يتضمن صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى غير ذلك. ويمكن أن نطلق على إنتاجه العلمي هذا (الأدب الجغرافي) الذي يُعد من أقدم من ألف فيه، حيث لم يكن معروفاً في المشرق، فهو الذي أرسى قواعد هذا الفن في المشرق وربما الأندلس(٢٧).

تلا رحلة أبي حامد الغرناطي رحلة ابن جبير محمد بن أحمد الكناني، التي قام بها على أثر شيوع خبر تحرير بيت المقدس، وكان انطلاقه من غرناطة سنة ٥٨٥ هـ/١١٩٠ م، وزار بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز، وقد سجل كل شيء عن مشاهداته في هذه البلاد، ولاسيما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والمنشآت العمرانية والعلمية، وفي بعض الأحيان كان يتحدث عن الأوضاع السياسية إلى غير ذلك. وخير ما يمكن قوله عن هذه الرحلة، أنها موسوعة عن المشرق العربي، اشتملت على جميع مناحي الحياة. وكانت فائدة هذه الرحلة عظيمة في العصور الوسطى، وما زالت حتى الآن(٢٨).

جاء بعده الرحالة المغربي العبدري صاحب الرحلة المغربية، التي تمحورت بشكل خاص على الحياة العلمية في غزة، في فلسطين ومصر والحجاز(٢٩)، ومثله فعل بعده بوقت قصير الرحالة أبو عبد الله محمد بن عمر السبتي المعروف بابن رشيد، الذي دون رحلته المسماة (ملء العيبة) في ست مجلدات، ويشبه العبدري، من حيث اهتمامه بالأمور العلمية(٣٠)، وعاصره جغرافي مغربي آخر، هو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، الذي صنف الرحلة المشرقية، والتي اقتصر فيها على مصر والحجاز. ويشبه أسلوبه إلى حدٍ كبير أسلوب ابن جبير، لأن اهتمامات الاثنين هي واحدة تقريباً، مع الأخذ بعين الاعتبار أن رحلة ابن جبير هي أكثر شمولية واتساعاً(٣١).

---

٢٧ . انظر عنه حسين مؤنس . تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس طبعة مدريد ١٩٦٧ ص ٣١٠ وانظر كتابنا، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق طبعة دمشق دار شمال ١٩٩٥ ص ١٨٠ وما بعدها.

٢٨ . انظر رحلة ابن جبير ص ١٣ وما بعدها.

٢٩ . المقري . نفح الطيب ج٢ ص ٢٧٣ و ٣٢٧ و ٣٣٧ .

٣٠ . الذهبي . ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥٥ .

٣١ . السبتي . مستفاد الرحلة والاغتراب تحقيق عبد الحفيظ منصور تونس وليبيا ١٩٧٥ ص ٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن الرحالة الأكثر شهرة، من حيث اتساع الرقعة العالمية التي زارها هو ابن بطوطة الطنجي المغربي، الذي بقي أكثر من ربع من الزمن يتجول في دول آسيا وأفريقيا خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري، ورحلته هي أوسع رحلات الأندلسيين والمغاربة، من حيث المعلومات التي اشتملت عليها.

بعد ابن بطوطة، وصل إلى المشرق العربي رحالة مغربي آخر، هو علم الدين خالد بن عيسى البلوي صاحب الرحلة المسماة (تاج المفرق في تحلية علماء المغرب والمشرق) وقد زار مصر والحجاز، وجمع بين أسلوب ابن جبير وأسلوب العبدري. فاهتماماته كانت في النواحي العلمية والاجتماعية والاقتصادية إلى غير ذلك. ويمكن القول في صدد هذه الرحلة، أنها من الرحلات ذات الطابع الموسوعي، وقد جاءت أهميتها من المعلومات القيمة، التي احتوتها عن مناطق مصر والحجاز(٣٢).

وبالجملة فقد كانت أعمال الرحلة من المغرب والأندلس باتجاه المشرق العربي ومناطق العالم الأخرى، من الأمور التي لم تنقطع خلال فترة العصور الوسطى، وشملت المعلومات التي دونها أصحاب هذه الرحلات جميع التطورات المختلفة في هذه المناطق، مما جعل رحلاتهم مصادر إعلامية للمغاربة والمشارقة على حدٍ سواء، وشكلت من ناحية أخرى مصادر لكثير من المؤلفين في الجغرافية والتاريخ والعلوم الأخرى، وما زال الأمر قائماً حتى وقتنا الحاضر.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام، أن كثيراً من العلماء العرب الذين لم تكن صنعتهم الجغرافية، قاموا بتدوين عدد كبير من المعلومات الجغرافية الهامة، وذلك ضمن كتبهم المتنوعة. كان من هؤلاء المسعودي، وابن طفيل، الذي ضمن كتابه (رسالة حي بن يقظان) عدداً من الآراء الجغرافية، استقاها من غيره، ولكنه استخدمها استخداماً علمياً وفي سبيل العلم. وهو الذي يقول، بأن المناخ على خط الإستواء معتدل بين الشتاء والصيف وبين الليل والنهار.

وكذلك فعل ابن فضل الله العمري الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م عندما ضمن كتابه المعروف (التعريف بالمصطلح الشريف) بعض المعلومات الجغرافية، على الرغم من أنه كتاب في آداب الدواوين. من ذلك، الكلام على الطرق المسلوكة بين البلدان. ويدل كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) على الاطلاع الواسع، الذي كان يتمتع به، وعلى براعته في التصنيف وعلى حسن أسلوبه. فعلى الرغم من صفته التاريخية، فإنه عالج فيه الجغرافية العامة،

٣٢ ـ البلوي ـ تاج المفرق في تحلية علماء المشرق والمغرب تحقيق الحسن السائح ص ١٤٤ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واهتم بشكل خاص بالجغرافية الاقتصادية، في المشرق والمغرب وأوروبا.

ومثله كان محمد بن ابراهيم الكتبي الوراق المتوفى سنة ٧١٨ هـ/١٣١٨ م فعلى الرغم من أنه أديب وشاعر، فقد حرص على تضمين كتابه (مباهج الفكر ومناهج العبر) معلومات متنوعة عن علوم الفلك وعلم الحياة، وخلق الأرض وهيئتها، وعلى كرويتها وحركتها.

ومع أن كتاب (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) للمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م كتاب تاريخ في الغالب، فإن للجانب الجغرافي فيه قيمة ظاهرة، والكتاب قاصر على مصر، وعلى القاهرة خاصة، ولكنه يتناول طرفاً من أحوال جيران مصر، كالحبشة واليمن، وتطرق إلى ذكر أقسام الأرض وما إلى ذلك.

واهتم العرب بالملاحة كثيراً، لكن هذا الاهتمام لم يتبلور في شيء ملموس وعلمي قبل كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) لشهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م. وهذا الكتاب في قسمين، الأول نظري في نشأة الملاحة وفي البوصلة وفي الأمور، التي يجب على المعلم (الربان أو قائد السفينة) أن يعرفه، وفي منازل القمر والجهات التي تهب منها الرياح، وصلة هذه الجهات بالبوصلة وتقسيماتها، وبطلوع عدد من الكواكب والنجوم وبمغيبها، وقسم عملي يتناول وصف الشواطئ والجزر وما عليها من العلامات، التي تساعد الربابنة على الاهتداء في الملاحة، وعلى الاقتراب بالسفن من مراسيها.

وكانت معرفة ابن ماجد بالبحر الأحمر وبالمحيط الهندي واسعة جداً. وهو الذي قاد الملاح البرتغالي فاسكودا غاما في سنة ٩٠٥ هـ/١٤٩٨ م في بحر العرب، حتى وصل به إلى مرفأ كاليكوت على الساحل الجنوبي الغربي من شبه جزيرة الهند. وفي تلك الرحلة كان مع ابن ماجد خارطة لجميع شواطئ الهند وعدد من الآلات والأدوات. ولما رأى ابن ماجد الخرائط والآلات، التي كان فاسكودا غاما يستخدمها، لم يجدها على المستوى الذي كان العرب قد وصلوا إليه في علم الملاحة النظري ولا في فن الملاحة العملي.

ولقد كانت الملاحة في العصور الوسطى وفي مطلع العصور الحديثة في البحرين الأبيض والأحمر، وفي المحيطين الهندي والهادي اختصاصاً عربياً. أما في المحيط الأطلسي، فلا ريب في أن المغاربة والأندلسيين، كانوا ذوي معرفة به ومهارة في خوضه، ولكننا لا نعرف شيئاً أكيداً عن مدى توغلهم فيه(٣٣).

٣٣ ـ انور عبد العليم ـ ابن ماجد الملاح ـ طبعة القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٦ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما كان للعرب أن يقوموا بتلك الأعمال الملاحية، لولا وجود أجهزة دقيقة اخترعوها، أو نقلوها عن غيرهم، ثم عدلوا أو حسنوا فيها. ويأتي في مقدمة ذلك البوصلة، التي اختلف حول مخترعيها، فقال بعضهم بأنها من مخترعات الصين، وأرجعها بعضهم الآخر إلى اليونان، لكن جوستاف لوبون أكد بأنها اختراع عربي أصيل، وهو قول إن أعجزته أدلة الجزم القاطع لم تعوزه أدلة الترجيح(٣٤).

ومن الأجهزة التي أخذوها على الإغريق الاصطرلاب واللبنة وهي صفيحة مربعة مدرجة لقياس البعد بين شيئين. ثم الحلقة الاعتدالية وهي حلقة مدرجة مثبتة على زوايا قائمة فوق سطح دائرة المعدل لقراءة الميل عند الزوال. كما أدخل العرب كثيراً من التحسينات على هذه الأدوات، وأضافوا إليها أجهزة أخرى من ابتكارهم مثل المزولة الشمسية، وذات السمت والإرتفاع، وهي حلقة قطرها سطح من سطوح أسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت وارتفاعه. وقد كان لصفيحة الزرقالي أبعد الأثر في أوروبا فيما يختص بتحسين الاصطرلاب واستخداماته، وظلت معروفة لعدة قرون عند الفلكيين والملاحين(٣٥).

وفي الخرائط أدرك العرب بفطرتهم السليمة أهمية الخريطة، كوسيلة للايضاح. فكان الخوارزمي أول من وضع مجموعة من الخرائط في كتابه (صورة الأرض) ووضع البلخي أول أطلس عربي ألحقه بكتابه (صور الأقاليم). وكان من ثمرات الجهود، التي بذلت في عصر المأمون، عمل نوع من الخرائط يسميها المسعودي (الصورة المأمونية) ويذكر أن الأرض فيها. وقد اجتمع لوضعها عدد من علماء العصر، وصوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه، وبره وبحره، وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك(٣٦).

ومع أن العرب لم يتقدموا في فن عمل الخرائط تقدمهم في وضع المؤلفات الجغرافية، فقد كانوا على أي حال أصحاب الفضل في الحفاظ على التراث الخارطي القديم. وقد ارتبط علم الخرائط العربي منذ القديم باسم بطليموس، فحفظ العرب تراثه حتى نهاية العصور الوسطى، وعنوا به أكثر مما عنيت أوروبا الوسيطة.

خلاصة القول أن الجغرافية الحديثة، لم تنشأ نشأة مفاجئة وإنما تعود بجذورها إلى العصور القديمة، وكان العرب في العصور الوسطى، هم حلقة الوصل بين القديم والحديث، فحافظوا على

٣٤ ـ العقاد. اثر العرب في الحضارة الأوروبية طبعة خامسة القاهرة ص ٥٠ .

٣٥ ـ محمد محمود الصياد ـ المرجع السابق ص ٢٩٤ .

٣٦ ـ المسعودي . التنبيه والاشراف طبعة ليدن ١٨٩٣ ص ٣٣ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أروع ما في التراث القديم، وأضافوا إليه خلال سبعة قرون من الازدهار الحضاري ما تجمع لديهم من المعرفة الجغرافية عن طريق الرحلات الواسعة، التي سجلوا مشاهداتهم فيها بدقة ووضوح، وعن طريق الأجهزة العلمية التي ابتكروها أو حسنوا فيها، وعن طريق التفكير الحر، الذي لم تقيده أغلال كتلك التي فرضت على التفكير الغبي طوال العصور الوسطى، واستمرت جهودهم في تطوير الفكر الجغرافي دون انقطاع حتى كان عصر النهضة والكشوف الجغرافية.

٣ ـ علم الاجتماع:

علم الاجتماع من العلوم الجديدة على الإنسانية، ولم يظهر هذا العلم إلا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أسهم في ظهوره وترسيخ أسسه العامة العالم العربي عبد الرحمن بن خلدون المغربي النشأة والمولد والمصري الوفاة. وهو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون. ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م، وتلقى علومه على أبيه وعلى نفر من علماء تونس، والعلماء الواردين إليها، فدرس الفقه واللغة والنحو والمنطق والفلسفة. وفي سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥١ م تولى (كتابة العلامة) لحاكم تونس. وفي سنة ٧٥٦ هـ/١٣٥٥ م استقدمه 'فاس للعمل في بلاطه.

وتقلب ابن خلدون في بلاد المغرب والأندلس، فعمل عند بني مرين بفاس حتى سنة ٧٦٠ هـ/، وعند بني عبد الواد بتلمسان حتى ٧٦٣ هـ، ثم عند بني الأحمر في غرناطة حتى سنة ٧٦٤ هـ، ثم انتقل إلى المغرب. ولما سئم التطواف والمناصب وخاف عاقبة السياسة آثر الاعتزال في قلعة تقع إلى الشرق من مدينة تلمسان، وبقي هناك أربع سنوات، حيث بدأ بكتابه التاريخ.

وفي سنة ٧٨٤ هـ/١٣٨٢ م سار ابن خلدون من تونس إلى الحج، فلما وصل إلى مصر عُرض عليه القضاء على المذهب المالكي، فقبله فتأخر ذهابه إلى الحج حتى سنة ٧٨٩ هـ. ولما غزا تيمور لنك دمشق ذهب السلطان الناصر فرج ابن برقوق إلى دمشق ليفاوض تيمور، واصطحب معه نفراً من العلماء فيهم ابن خلدون. ثم سمع الناصر فرج بمؤامرة عليه في مصر فاضطر إلى العودة، فحمل ابن خلدون مسؤولية الأمور، وذهب سراً على رأس وفد لمفاوضة تيمور في الصلح وألقى بين يديه خطبة نفيسة، فأكرمه تيمور عليها وأعاده إلى مصر. وقد توفي بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م(٣٧).

---

٣٧ ـ انظر عن ذلك ابن خلدون التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً وكذلك كتابنا، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ٢٩٧ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد امتاز ابن خلدون بسعة اطلاعه على كتابات الأقدمين وعلى أحوال البشر، وكان قادراً على استعراض الآراء ونقدها، مع حرية في التفكير وإنصاف لأصحاب الآراء المخالفة لرأيه. ثم إنه مفكر متزن لا يميل مع الهوى، بل تراه يقيد استنتاجاته كلها بما هو مشاهد في الاجتماع الإنساني.

أما في حياته الشخصية، فإن خلدون يعتقد أن العقل قاصر عن إدراك الحقائق القيبية، ولذلك نراه في حياته الشخصية والعملية يعول على الشرع وحده. وأما في جياته العقلية، وفي تآليفه خاصة، فإنه معتزلي التفكير يعتمد العقل والأقيسة المنطقية، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار.

أما بالنسبة لعلم الاجتماع، فقد كان يسميه (العمران) لذلك فهو عالم اجتماعي وواضع علم الإجتماع على أسسه الحديثة لم يسبقه إلى ذلك أحد. ثم أن علماء الاجتماع الذين جاؤوا بعده من الغربين أنفسهم، كانوا دائماً مقصرين عنه في بعض النظريات الاجتماعية أو غافلين تمام الغفلة عن عدد من قوانين العمران التي استخرجها. ولما أطل القرن التاسع عشر، واستبحر علم الاجتماع في أوروبة وأميركا، أدرك علماء العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة الأحكام الشاملة، وبُعد النظر الثاقب في ما بسطه ابن خلدون في مقدمته المشهورة(٣٨).

لقد أراد ابن خلدون من آرائه في العمران، أن تُطبق على المجتمع العربي الإسلامي ومع ذلك فإن قوانينه في هذا الشأن تنطبق أيضاًعلى غير العالم العربي الإسلامي. ولا تزال القوانين تُصدق قليلاً أو كثيراً على بيئات عديدة في أزمنة مختلفة، وعلى هذا لا يكون ابن خلدون أول عالم اجتماعي في العرب فحسب، ولا هو من أكابر علماء الاجتماع فقط، بل هو أول علماء الاجتماع بإطلاق وأعظمهم إدراكاً لحقائق العمران الأولى في تاريخ الفكر الإنساني أجمع(٣٩).

والعمران عند ابن خلدون، هو الاجتماع الإنساني القائم على صلة البشر بالأرض المعمورة أي البيئة الطبيعية، ثم على صلة بعض البشر ببعض في المكان الواحد أو في الأمكنة المتفرقة أي البيئة الاجتماعية. ويجتمع البشر حتى يتعاونوا فيتغلبوا على مصاعب البيئة الطبيعية في الدرجة الأولى، ثم لتوفير الراحة والترف باستنباط الصناعات ووسائل التنعم واستخراج القوانين وترتيب المعاملات والتمتع بالملاذ والشهوات، حينما تنقلب البداوة حضارة مستقرة(٤٠).

يشير ابن خلدون ناحية هامة جداً، تتجلى في أثر الإقليم والتربة في سكان المناطق المختلفة.

---

٣٨ . ساطع الحصري . مقدمة ابن خلدون طبعة مصر ١٩٥٣ ص ١١٠ وما بعدها.

٣٩ . ساطع الحصري . المرجع السابق ص ١٣ وما بعدها.

٤٠ . مقدمة ابن خلدون ص ٤١ . ٤٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فبعض أقاليم الأرض أكثر موافقة للسكنى من بعضها الآخر. والبلاد المعتدلة أكثر عمراناً من البلاد المفرطة في الحر أو البرد. وإذا أفرط الحر في البلاد أسود جلد أهلها، وغلبت عليهم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص موصوفين بالحمق. أما سكان البلاد الباردة، فيغلب عليهم الإطراق إلى حد الحزن ثم التفكير في العواقب. ثم أن الأقوات تختلف باختلاف الأقاليم وتترك أثرها في الناس، فإن الإفراط في الخصب والنعيم والأطعمة الغليظة، يورث قلة المناعة في الجسم، ويورث البلادة والغفلة وانكساف الألوان وقبح الأشكال، كما أن الجوع المفرط ينهك الجسم والعقل. غير أن أهل البلاد المجدبة أقدر على احتمال المجاعات(٤١).

والعمران أو الاجتماع عند ابن خلدون نوعان، بدوي وحضري والأول سابق على الثاني في الزمن ومادة له، فإن أهل الحضر مهاجرون من البدو، كما أن أهل البادية يقدمون لأهل الحضر ما يحتاجون إليه من الأطعمة النباتية والحيوانية. وخصائص البداوة عند ابن خلدون هي:

١ ـ الرحلة في طلب المعاش من مكان إلى مكان، وتكاد تنحصر مآكل البدوي في نتاج أنعامه من اللبن واللحم. ويذكر بأن البدو في المغرب كانوا أكثر استقراراً من البدو في المشرق لأنهم يعملون في الزراعة.

٢ ـ القوة والشجاعة. البدو أصح أبداناً من أهل الحضر للنشأة الطبيعية ولصحة الهواء في البداية. والبدو أقل تعرضاً للأمراض وأقدر على احتمال المشاق والمجاعات. ثم هم أكثر شجاعة لحاجتهم الدائمة للدفاع عن أنفسهم في وجه العدو المغير وفي رد الحيوان المفترس.

٣ ـ العصبية. وهي عند ابن خلدون شعور جماعة من الناس، يعيشون في مكان واحد أو في أمكنة متفرقة، بأنهم ينتمون إلى أصل واحد ويشد بعضهم إلى بعض روابط من المناخ المادية أو من الأحوال الاجتماعية أو من المثل العليا. وفي العصبية أربعة مقومات هي، العدد والمال والسلاح والدعوة الدينية.

٤ ـ الظلم والبر. ومن خصائص البداوة الظلم، فإن البدو يعتمدون في الدفاع عن أنفسهم، من أجل ذلك احتاج كل قوم منهم إلى إرهاب خصومهم وأعدائهم، فاضطرهم ذلك إلى أن يبدأوا غيرهم بالعدوان، قبل أن يبدأهم غيرهم بالعدوان.

وإذا كان الظلم معنى عاماً في القبيلة، فإن البر معنى خاص في الأفراد. فالبر طاعة الفرد

٤١ ـ المقدمة ص ٨٢ ـ ٨٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لجماعته، وإن كانت هذه الطاعة أحياناً مضرة بالفرد، لأن المقصود الأول بهذه الطاعة، أن تكون في مصلحة الجماعة وفي سبيل منفعتها(٤٢).

يبحث ابن خلدون في مسألة الانتقال من البداوة إلى الحضارة، الذي يكون بفعل زيادة الثروة، التي تدعو إلى الترف والتمتع بثمرة الغنى. وبما أن أوجه الحياة في البادية محدودة، والكماليات التي يكون بها الترف معلومة، فإن الذين تعظم ثرواتهم يحبون الانتقال إلى الحضر في المدن الكبيرة، التي كانوا قد جمعوها لينفقوها في وجوه الترف وفي التقلب في النعيم وأنواع الملاذ واتباع الشهوات.

وكذلك بفعل الجاه التي تدعو إلى التفرد بالحكم، فالحكم في البداية رئاسة بالعصبية، تقدم له القبيلة واحداً منها وتطيعه برضاها، ثم تشاركه في أعباء الحكم وفي جاهه. فإذا قوي أحد الرؤساء، لزيادة في ثروته أو عصبيته أو قدرته، آثر أن يكون الحكم خالصاً له لا يشركه فيه أحد. وبما أن ذلك لا يتيسر له في البادية، فإنه ينتقل إلى الحضر، وينشئ ملكاً قائماً على عصبية جديدة ضعيفة، فيتمكن من التفرد بالحكم والتمتع بثمرات الملك وحده، ثم لا يكون لعصبيته الجديدة ولأتباعه الجدد من تلك الثمرات إلا ما يتفضل هو به عليهم.

وقال ابن خلدون بأن للعمران الحضري خصائص مميزة، كالإستقرار أي النزول في بلد كبير نزولاً دائماً، والعمل في وجوه المعاش الحضرية من تجارة وصناعة وزراعة، وكالتوسع، في المأكل والملبس والمسكن، فأول ما يقوم به المتحضر، يوسع على نفسه وعلى أهله وأتباعه في المآكل ثم الملابس ثم في المساكن، وكالتأنق في أسباب الحياة، كأن يتناول أطعمة مختلفة، وأن يرتدي ملابس متعددة، وكالترف الذي يعني الإخلاد إلى الراحة والإغراق في النعيم، كالإكثار من المطاعم والملابس والمساكن ومن التمتع بجميع وجوه الحضارة، وكالدولة والملك، وكالعلم الضروري لإقامة صناعات وما إلى ذلك(٤٣).

وعن الدولة ونشوئها وعمرها واستمرارها، ذكر عدة ملاحظات جديرة بالتقدير والاحترام، من ذلك قوله، أن للدولة نطاق من الأرض لا تتعداه، وإذا كان أهل عصبيتها أكثر عدداً كانت هي أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً. وقال أن الدين وحده لا ينشئ دولة، بل لا بد للدين نفسه من عصبية حتى ينتشر ويستقر.

---

٤٢ ـ انظر المقدمة ص ١٢٠ ـ ١٢٥ .

٤٣ ـ انظر عن ذلك المقدمة ص ١٧٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والملك عند ابن خلدون أمر طبيعي للبشر، إذ أن كل اجتماع إنساني بحاجة إلى حاكم يقيم العدل بين الناس، لأن إقامة العدل بينهم يعزز استمرارية بقاء الدولة قوية مهابة الجانب.

والدولة في رأي ابن خلدون تمر في أربعة أجيال، مدى كل جيل ثلاثون سنة، فيصبح عمر الدولة مئة وعشرين سنة قد تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً. ففي الجيل الأول يكون جانب أهل الدولة مرهوباً والناس له طائعين، وأما في الجيل الثاني فإن الملك يتحول بالترف من البداوة إلى الحضارة، لكن أهل الدولة يظلون يتذكرون شيئاً من مجدهم الأول فيحاولون التشبه بأهل الجيل الأول ويدافعون عن دولتهم. وفي الجيل الثالث ينغمس أهل الدولة في الترف، وينسون عهد البداوة، وتذهب عصبيتهم جملة ويعجزون عن المدافعة، ولا يبقى لهم إلا مظاهر القوة من الشارة وركوب الخيل بلا فروسية ولا شجاعة. عندئذ يحتاج صاحب الدولة إلى أن يستظهر بغيره. أما في الجيل الرابع فتنهار الدولة نهائياً(٤٤).

ويقول ابن خلدون عن التعليم، أنه ضرورة مطلقة للمجتمع والحياة، والعلوم عنده صنفان، صنف يهتدي إليه الإنسان بفكره كالعلوم الرياضية والطبيعية والعقلية، وصنف مستند إلى الواضع الشرعي كعلوم الدين.

ويرى من جهة أخرى، أن التعليم صناعةخاصة غايتها إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين، لا حملهم على حفظ فروع العلم وهو يضع للتعليم منهجين يجب أن يطبقا في وقت واحد: منهج التوسع ومنهج التدرج. يبدأ تعليم الصغير بالتدريج به من الأسهل إلى الأقل سهولة. وهكذا إلى أخر المطاف.

ويشدد على عدم إتباع الشدة في عملية التعليم، وبخاصة تعليم الصغار، لأن الشدة مضرة بهم، لأنها تحول دون اكتساب الملكة. وكذلك يرى أن التعلم لا يحصل كله بالاستعداد والجد، وإن هناك جزءاً طبيعياً يكتسب بالفطرة، إذا ترك الإنسان فسحة للعقل، كي يستريح.

وله رأيه في الكثير من الموضوعات الأخرى، كالفلسفة والتاريخ والكيمياء وعلم النجوم وما إلى ذلك، وهي مسائل تستوجب وقفة مطولة في غير هذا المقام، ذلك لأننا حرصنا حرصاً دقيقاً، أن نلتزم في حدود العنوان، الذي وضعناه في البداية، وهو علم الاجتماع، الذي كان ابن خلدون مبتكره وواضع دعائمه الأولى، كما اعترف بذلك الباحثون الأوروبيون وغيرهم من بقية علماء المعمورة، وقد طُور هذا العلم في الفترة اللاحقة، حتى غدا من العلوم المتطورة والضرورية لتنظيم أي مجتمع من المجتمعات.

---

٤٤ . انظر عن ذلك المقدمة ص ١٧٥ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن:

الفكر العربي الإسلامي في مجال العلوم الدينية

نزل القرآن الكريم على الرسول (ص) الذي يمثل التشريع الإسلامي، وقام الرسول بكثير من الأعمال، وحدث كثيراً من الأحاديث في جميع القضايا الدينية والاجتماعية التي اعترضت له، وكان الناس يرجعون إليه في حل مشاكلهم، ولكن كثيراً منهم كان بعيداً عن مكان إقامته، كما أنه بعد وفاته (ص) انقطع الوحي، وأصبح لزاماً على الناس أن يفهموا أو يدرسوا أقواله، ويقيسوا الأشياء بنظائرها، وجاءت طبقة جديدة اختلفت في تفسير الآيات القرآنية، وكان لا بد لكل هذا أن تنشأ علوم دينية مختلفة، بعضها يتصدى لتفسير القرآن الكريم، وآخر يبحث في الحديث، وثالث يبحث في الفقه إلى غير ذلك.

١ ـ علم القراءات:

لما نزل القرآن على الرسول (ص) نزل بلهجة قريش، التي احتوت كثيراً من الكلمات الغامضة، فسمح الرسول (ص) لأتباعه بقراءة القرآن حسب لهجاتهم الخاصة. وقد جمعت هذه اللهجات فيما بعد بسبع لهجات، ووصل بها بعضهم إلى عشر. ولا يزال القراء يقرأون القرآن على هذه اللهجات. ووضع القراء قواعد واسس لقراءة القرآن ولهجاته جمعت في علم التجويد. وقد ظهر في العصور الوسطى كثير من العلماء الذين ركزوا جلّ اهتمامهم على القراءات، وألفوا فيها كتباً كثيرة ما زالت معروفة حتى اليوم(١).

٢ ـ التفسير:

يحتاج كل كتاب شامل إلى من يقوم بشرحه وتفسيره، ذلك لأن الناس متفاوتون في فهم اللغة، التي يتكلمون بها واستيعاب مفرداتها وتراكيبها، فكيف بالقرآن، وهو كتاب جامع لأصول

١ ـ انظر بعض هؤلاء القراء في كتابنا، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ١٦٢ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدين الإسلامي، استعرض أخبار الأمم السالفة، وشرع لأتباعه قانوناً أراد له البقاء وأمر أتباعه القيام بفرائض وعبادات متنوعة، فلا بد للناس من تفسير لآياته وتعليماته كمناسك الحج، وعدد ركعات صلاة كل وقت، وبيان الآيات التي نزلت بمناسبة حوادث معينة وقعت في عصر الرسول. ومع أن القرآن نزل بلغة العرب الفصحى، فقد آمن به أناس من غير العرب، يحتاجون إلى فهمه ودراسة معانيه، حتى العرب الأقحاح، لم يكونوا على مستوى ثقافي واحد، ليفهموا آياته على السواء. وبسبب كل ذلك نشأ علم التفسير الذي اعتمد على تفسيرات الرسول الكريم، الذي كان يقوم بتفسير الآيات القرآنية، وعلى النقل عن الصحابة الأوائل، الذين كانوا يرافقون الرسول (ص) في حله وترحاله، ويحفظون عنه أقواله ويراقبون أعماله، فعرفوا أسباب نزول الآيات والظروف التي لابستها، وأخذوا بعد وفاة الرسول (ص) يشرحون ذلك للناس ويفسرون لهم ما غمض عليهم من المعاني. وعلى الاجتهاد، الذي يقوم على دراسة العلماء الآيات معتمدين على معاني كلماتها اللغوية، وقد عرف ذلك أيضاً باسم (الرأي) وأول من فعل ذلك عبد الله بن عباس وابن مسعود. وعلى ما في الكتب السماوية الأخرى، حيث آمن كثير من أتباع الديانتين السماوية اليهودية والمسيحية، ووجد هؤلاء أن القرآن نحى في ذكر قصصه على الأمم الغابرة منحى العظة دون أن يتعرض للتفصيل، وقد مال الناس بعد ذلك لاستقصاء الحوادث ومعرفة وقائعها، ففسرها لهم هؤلاء اليهود والمسيحيون، الذين أسلموا بما في كتبهم الدينية، وهكذا فسرت الآيات التي ذكر فيها أصحاب الكهف وقصة آدم والجنة والشجرة، التي نهى آدم عن الأكل منها. وأشهر المفسرين الذين اعتمدوا على التوراة وهو وهب بن منبه وكان يهودياً فأسلم، كما اعتمد الطبري في تفسير سورة مريم على الإنجيل.

أما الذين فسروا آيات القرآن أكثر من أن يحصروا، ولكن الذين اشتهروا بالتفسير وتركوا لنا تفاسير مدونة طبعت اليوم، يمكن معرفة آرائهم وطريقة بحثهم ومناقشة تفاسيرهم قليلون، فبعد الصحابة الأوائل مثل علي وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، الذين لم يصلنا من تفاسيرهم شيء جاءت طبقة من المفسرين في عصر التدوين والتأليف نذكر منهم على سبيل المثال، الطبري وكتابه جامع البيان في تفسير القرآن، والبغوي وكتابه معالم التنزيل، والزمخشري وكتابه الكشاف، والرازي وكتابه مفتاح الغيب، والسيوطي وجلال الدين المحلي وكتابهما تفسير الجلالين.

وكانت الصفة البارزة للذين تعرضوا لتفسير القرآن، تهيبهم من القول فيه بآرائهم، واعتمادهم على ما وصل إليهم من روايات يتناقلونها، منها الصحيح ومنها الضعيف. وقد أثر هذا الجو على الطبري فكانت عنايته البالغة بالرواية، وإن لم يمنعه هذا من أن يدلي برأيه موافقاً أو مخالفاً، فكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفسيره يمثل دائرة معارف ضخمة في كل العلوم التي كانت سائدة في هذا العصر، وتتصل بتفسير القرآن.

وقد جاء الطبري في تفسيره أشتات من الروايات. وهو يعلم أن منها الموضوع والمكذوب. فترك لضعاف العقول عقلية خرافية تراودهم مدى الدهر(٢).

٣ ـ الحديث وأصوله:

كان لدى المسلمين بعد وفاة الرسول (ص) كتاب مدون هو القرآن، وأحاديث غير مدونة هي مجموع ما قال الرسول (ص). ولقد خشي الصحابة الأوائل، أن يجمع الحديث في كتاب واحد، فيشغل الناس عن القرآن، ولقد روي عن عمر بن الخطاب، أنه قال في معرض نصائحه لبعض صحابة رسول الله (ص) اخرجوا من المدينة إلى العراق: "جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله".

والحديث بشكل عام هو، ما صدر عن الرسول الكريم من أقوال كان القصد منها تنظيم المجتمع ووضع الحلول لكثير من المشكلات، التي اعترضت سبيل حياة المسلمين، وينقسم علم الحديث إلى قسمين: علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية.

أما علم الحديث رواية، فهو علم يشتمل على نقل ما أضيف إلى النبي (ص) أو إلى أحد أصحابه أو من دونهم، قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة. وبتعبير آخر هو: علم يُبحث فيه كيفية اتصال الأحاديث بالرسول (ص) من حيث أحوال رواتها ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانطاعاً واشتهر بأصول الحديث.

وأما علم الدراية، فهو علم باحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث وعن المراد منها مبنياً على قواعد العربية وضوابط الشريعة ومطابقاً لأحوال النبي(ص).

كما ينقسم الحديث إلى متواتر وغير المتواتر، فالمتواتر هو الحديث الذي يكون له أسانيد كيرة (من عشرة إلى أكثر) وغير المتواتر ما ورد بثلاثة أسانيد فصاعداً ويسمى مشهوراً، وما ورد باثنين ويسمى عزيزاً، وما ورد بواحد ويسمى غريباً، وهذه الثلاثة تسمى آحاداً، وهي تنقسم إلى مقبول، وهو ما يجب العمل به عند الجمهور، وإلى مردود، وهو الذي لم يرجح صدق المخبر به، كما تنقسم الآحاد إلى صحيح، وحسن، وضعيف.

٢ ـ عبد المنعم النمر ـ رئيس تحرير الوعي الإسلامي ـ الكويت مقالان في مجلة العربية عدد ١٢٩ ـ ٣١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضع الحديث:

كان لعدم تدوين الحديث في وقت مبكر، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته إلى الرسل (ص)، حتى أن بعض الناس لم يتورع عن افتراء الحديث على لسان الرسول (ص)، في حياته، يدلنا على ذلك قوله: "من كذب عليّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" ولعل ذلك الحديث قيل ليمنع الناس من الكذب على لسانه، وإنما وضعت كثير من الأحاديث في العصور التي تلت لأسباب عديدة منها:

آ ـ الخصومة السياسية: حينما انقسم المسلمون منذ الفتنة الأولى، التي انتهت بمقتل عثمان واستمرت إلى نزاع بين علي ومعاوية، ثم ظهرت على شكل نزاع بين الأمويين والعلويين والخوارج والزبيريين وغيرهم، عمد كل فريق من هؤلاء إلى الحديث يضع ما يؤيد رأيه ويدعم حجته من تفضيل لقبائل على قبائل، وأعمال على أعمال.

ب ـ الخصومة الدينية: وقد نشأت حينما بحثت الفرق أموراً دنيوية لها مساس بالدين أو أموراً دينية بحتة كمسألة الخلافة، وأمر مرتكب الكبيرة وصفات الله تعالى، وقد عمد بعضهم عندما عجز عن تأييد دعواه بالمنطق السليم إلى الافتراء على لسان الرسول (ص).

ج ـ الخصومات العنصرية: من المعروف أن الأمويين اتبعوا سياسة عربية، وأبعدوا الموالي عن أعمال الدولة، فنقم هؤلاء عليهم، وأيدوا الثورات التي قامت ضد الأمويين، ثم ناصروا العلويين والعباسيين، وأقاموا الدولة العباسية على أكتافهم، وقاوموا النفوذ العربي في المجال السياسي والديني والأدبي ونشأت حركة الشعوب خلال هذا الصراع العنيف، ووضع كل فريق من العرب والعجم والأحاديث بتفصيل العرب على العجم أو بالعكس.

د ـ التقرب من ذوي النفوذ والجاه ومتابعة هوى الخلفاء والأمراء: كان بعض من يتسم بسمة العلم، يتقرب من ذوي المكانة في الدولة بتأييد أعماله وأفعاله ولو كانت مخالفة للشرع، وذلك باختلاق الأحاديث الكاذبة تبعاً لهوى هؤلاء المتنفذين طمعاًفي مالٍ أو حظوة.

هـ ـ رغبة بعض العلماء الحث على الفضائل والترهيب من عمل الحرام: رأى بعض العلماء أن قسماً من الناس لا يخافون من عمل المفكر، ولا يقبلون على مستحب إلا اذا كان لذلك أصولٌ دينية، فلما رأوا بعض المسلمين قد انصرفوا عن تعاليم الدين، اخترعوا أحاديث جمة بفضل قراءة القرآن وبعض سوره في أوقات معينة، وبفضائل الصحابة والأولياء والعلماء وفي الدعوة إلى التصوف وغيرها حتى يقبل الناس على قراءة القرآن وعمل الخير واحترام أهل العلم، والابتعاد عن الاسترسال في طلب العلم لأن الكثيرين أصبحوا لا يقبلون العلم والدين إلا ما اتصل منه بالكتاب والسنة ولهذا دخل في الحديث كثير من الموضوع المختلق بشكل روع أهل العلم في عصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التدوين، فانبروا إلى جمع الحديث وتدوينه بعد تنقيته وتمييز صحيحه عن موضوعه، واتبعوا في ذلك طرقاً تعد أحسن طرق علمية يمكن أن تتبع للتأكد من صحة الحديث وهي:

أ ـ الإسناد، أي إسناد الحديث إلى رواته فيقال مثلاً، حدثني فلان عن فلان عن رسول الله أنه قال.....

ب ـ الجرح والتعديل، أي دراسة رواة الحديث أنفسهم وترتيبهم حسب صدقهم وأمانتهم في النقل، وحيادهم المذهبي والسياسي، فمتى عرف أحدهم ولو بكذبة واحدة في حياته أو انتمى لفرقة سياسية أو دينية، جرّح ولم يقبل منه الحديث، ومن لم يعرف عنه ذلك، واشتهر بالتقى والورع والصدق "عدل" وقبل منه الحديث. وعلى هذا الأساس نقد الأسناد ودرست أحوال السند بعناية فائقة وبطرق علمية، وصنف المحدثون بطبقات حسب أهميتهم ومقدار الثقة بروايتهم(٣).

تدوين الحديث:

حينما جُمع القرآن في عصر أبي بكر، فكر جماعة في مسألة جمع الحديث، لكن عمر بن الخطاب عارض ذلك خشية أن ينصرف الناس إلى الحديث ويتركوا القرآن. وبقي الحديث محفوظاً في الصدور يتناقلونه شفاهاً أو مكتوباً بشكل مفرق عند بعضهم.

وفي أواخر العصر الأموي بدأ تدوين الحديث وجمعه، فكتب العلماء ما سمعوه من حديث، ولما قويت الحركة العلمية من تأليف ونقل وجمع، انكب جماعة من العلماء على تصنيف الحديث وتدوينه، وانقسموا إلى فريقين: فريق جمع كل الأخبار المروية عن الرسول (ص) من أحاديث العقائد وأحاديث الأحكام، والأحاديث التي تعرضت لشؤون الحياة والمعاملات كالتربية النفسية والأدب الديني، وخلق المجتمع الفاضل، وسميت كتبهم بالجوامع مثل كتاب صحيح البخاري وصحيح مسلم، وفريق رتب أحاديث الفقه ترتيباً بحسب أبواب الفقه، فتتبع رواتها أحاديث الأحكام وقضاء النبي (ص) وأعماله التي ستنبئ عن أحكام فقهية وما أقره من أقوال وأعمال تتعلق بالأحكام، ويروون معها أقوال الصحابة الفقهية. وأول هذه الكتب (الموطأ) للإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ. وقد ذكر فيه أقوال الصحابة وما يستنبط منها من فقه.

وعلى غرار الإمام مالك، نهج أبو داود سليمان بن الأشعب السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، فألف كتاب (السنن) وجمع فيه المهم من أحاديث الأحكام. والترمذي محمد بن عيسى

٣ ـ انور الرفاعي ـ المرجع السابق ـ ص ٥٥٤ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتوفى سنة ٢٧٩ هـ، الذي قام بكتابة الحديث وجمعه وترتيبه وتدوينه في كتابه (الجامع) وسمي سننا. وكتب دراسة لرجال الحديث ومراتبهم من حيث قوة الثقة بهم، وهي كتاب التواريخ وكتاب العلل وكتاب الأسماء والكنى. وابن ماجة محمد بن يزيد الربعي القزويني المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، الذي ألف كتاب (السنن) الذي يحتوي على أربعة آلاف حديث. والنسائي أحمد بن شعيب المتوفى سنة ٣٠٣ هـ، الذي ألف كتاب (السنن الكبرى) وكتاب (السنن الصغرى) المسمى بالمجتبى(٤).

٤ ـ الفقه:

الفقه في اللغة العلم بالشيء والفهم له. والفقه اصطلاحاً، العلم بالدين والفهم له. فالفقه الإسلامي إذن، هو التبحر في الدين الإسلامي واستنباط أحكامه الشرعية من مصادرها الرئيسة، فهو علم التشريع الديني، ومصادره هي:

آ ـ **القرآن الكريم:** الذي يُعد دستور المسلمين ومصدر تشريعهم الرئيس، فأكثر آياته المدنية، بحثت في أمور الدنيا، ونظمت علاقات الفرد بالمجتمع وبالحكومة. كما تعرضت لأمور البيع والشراء والزكاة، والعائلة وأسسها وما شاكل ذلك. والقرآن كلام الله لا تغيير فيه ولا تبديل.

ب ـ **الحديث والسنة:** وضع القرآن الخطوط الرئيسة في التشريع الإسلامي، ولم يتعرض للتفصيل فيها، وترك كثيراً من الأمور للظروف المواتية، وكأن الرسول (ص) في حياته يفسر ما جاء مجملاً في القرآن، ويحل المشاكل التي تعرض له، ولم تنزل فيها الآيات كما سبق وذكرنا. فكان عمله وقوله المصدر الثاني للتشريع في الإسلام.

ج ـ **القياس:** واجه المسلمون بعد وفاة الرسول (ص) مشاكل، لم ينزل فيها نص ولم تحدث في حياة الرسول حتى ترد فيها سنة، كأمر المرتدين الذين أقروا بالدين الإسلامي، ولكنهم امتنعوا عن دفع الزكاة، وقصة جمع القرآن، والمشاكل المعقدة التي جابهتهم في مصر والشام والعراق من إرث وسرقة وفتنة... فماذا يفعل الخلفاء؟ هل يقفون حيارى أمام هذه المشاكل جميعها تصاب دولتهم بالجمود والرجعية. أم يجدون لها حلاً ملائماً؟ لقد قاسوا الأمور بأشباهها، وعرفت طريقتهم (بالقياس) كما عرفت فيما بعد باسم (الرأي) لأن أهل الرأي صاروا يبدون آراءهم فيما لم يرد فيه نص، بما يوافق روح الإسلام العامة، وكان أكثر أهل الرأي في العراق، الذين جابهوا حضارة قديمة معقدة، ومشاكل جديدة لم تألفها حياة الصحراء، ففرعوا الفروع، وتساءلوا عن كثير من الأمور.

---

٤ ـ انور الرفاعي ـ المرجع السابق ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د ـ الإجماع: هو أن يتفق رأي العلماء ويجمعوا على قضية يحتمل فيها أكثر من وجه، فما اتفقوا عليه أقروه وحكموا بموجبه، واعتبروه تشريعاً عاماً لمثل هذه الأحوال، وصارت قاعدة عامة فيما بعد، أن يعتبر اتفاق علماء عصر من العصور في تحليل أو تحريم أمر من الأمور تشريعاً، وبذلك لم يقف التشريع عند حدود الحضارات المختلفة ومجابهة كل المشكلات التي تعترض الإنسان في حياته، مهما اختلفت أشكال الحكم، ومهما تعقدت الحياة الاجتماعية.

المذاهب الفقهية:

على الرغم من مصادر التشريع الإسلامي، كالقرآن والحديث والقياس والإجماع وما إلى ذلك، فإن الناس كانوا عاجزين في كثير من الأوقات على استنباط الأحكام الشرعية من هذه المصادر، وكان لا بد لهم أن يسألوا العلماء العارفين بأمور الدين، وصاروا يتبعونهم في أمور دينهم ودنياهم، وكان أهل الحجاز لا يفتون فيما لم يرد فيه نص، ويعتبرون الأعمال التي أجمع أهل المدينة على القيام بها مصدراً من التشريع، ذلك لأن الرسول (ص) قضى بينهم الشطر الأكبر من حياته، ولم يكونوا يفتون إلا فيما وقع من الأمور بعكس أهل العراق، الذين بحثوا الأمور بحثاً علمياً مجرداً، سواء وقعت الحوادث فعلاً أم لم تقع، حتى ولو كان وقوعها يكاد يكون من المستحيل، وعلى هذا تعددت المذاهب الفقهية وتنوعت. وظهر عدد من علماء الفقه اختلفوا في الحكم على الأمور، وصار الناس يتبعون رأي أحدهم، كالحسن البصري، والأوزاعي، والطبري وغيرهم. إلا أن هذه المذاهب جميعها تبلورت على عدد من المذاهب، هي مذهب جعفر الصادق، وأبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، وأحمد بن حنبل. وسندرسهم بشيء من التفصيل بحسب قدمهم الزمني.

١ ـ جعفر الصادق: هو جعفر بن محمد الملقب بالصادق. ولد سنة ثمانين للهجرة، ونشأ بالمدينة المنورة وتثقف بها، وبعد وفاة والده اعتبره آل البيت إمامهم ومرجعهم العلمي والديني.

عاصر جعفر الصادق الخليفة أبا جعفر المنصور العباسي، فراقبه مراقبة شديدة على عادة بني العباس مع آل البيت، لكنه كان حذراً لأنه يعرف في قرارة نفسه مدى غيرة العباسيين وكرههم لأقربائه، فلم يقم بأي حركة تثير عليه حنق المنصور وغيره. وقد علت مكانته في عصره لعلمه وكرمه وحلمه وشجاعته ونفاد بصيرته، وبقي محافظاً على هذه المكانة إلى حين وفاته.

وكل علماء المسلمين يثنون على الصادق ويمدحونه، لأنه مثّل العقيدة الإسلامية خير تمثيل. وينسب إليه رسالة في التوحيد، دونها عنه تلميذه المفضل بن عمرو، وفيها يحاول إثبات وجود الله الواحد الأحد بأدلة يستوحيها من الموجودات من أحياء وجمادات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتنسب إليه بعض الآراء حول ما كان يجري في عصره من مشاكل القدرية والجبرية، فكان يقول: "إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً، فما أراده منا أظهره لنا... فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا.

وكان في فتاويه يعتمد على القرآن والحديث المروي عن أهل البيت. وكان يعتمد القياس في حدود ضيقة، ويروى أنه لقي مرة الإمام أبا حنيفة النعمان فقال له: "اتق الله ولا تقس الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس، إذ أمره الله تعالة بالسجود لآدم، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"(٥).

٢ ـ أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ: هو النعمان بن ثابت، الذي ولد في أسرة مارست تجارة الخز، وكانت ذات مكانة اجتماعية واقتصادية جيدة، الأمر الذي ساعد أبا حنيفة الاطلاع على معارف عصره، فالتقى بعلماء الكوفة والواردين إليها. وقد نصحه العلماء بترك التجارة والانصراف إلى العلم، فاستجاب لهم، وغدا لا يتردد إلى السوق إلا في القليل النادر، واستهواه في البداية علم الجدل، ثم تركه وتوجه إلى دراسة الفقه، فاختص بحماد بن أبي سليمان ولازمه فترة طويلة، الذي خلفه بعد وفاته سنة ١٢٠ هـ في التدريس والافتاء وما إلى ذلك.

كان أبو حنيفة فقيهاً كبيراً، تميز بمنهجه وعلمه، فكان منهجه يقوم على الأخذ بكتاب الله، فإن لم يجد فيه ما يريده، كان يتوجه إلى الحديث النبوي، فإن لم يجد كان يتوجه إلى الصحابة، فإن لم يجد كان يجتهد. وكان في عمله الاجتهادي يأخذ بعين الاعتبار مصالح الناس يشرط بعدها عن القبح وأعرافهم وما اعتادوا التعامل عليه، ويقيس ما دام القياس مقبولاً، أو يرجع إلى الاستحسان، وقد نجح في عمله غاية النجاح، ساعده على ذلك ثقافته الواسعة، وخبرته الواسعة الطويلة في عمله بالسوق، لهذا برع في أحكام المعاملات أكثر من سواه، ويمكن وصف فقهه بأنه وليد الروح التجارية، ولهذا أعطى الاعتبار للحرية الشخصية ورأى ضرورة حمايتها(٦).

٣ ـ الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ: برز الإمام مالك واشتهر أمره بالمدينة المنورة، ولد كما هو متفق عليه سنة ٩٣ هـ بالمدينة من أبوين عربيين، وقد درس في طفولته القرآن الكريم، ثم بدأ بحضور مجالس العلماء بعد ذلك، وكانت والدته أشد المتحمسين لتعليمه، سهرت على العناية به واختارت له من الأساتذة أحسنهم وأعرفهم، من أمثال ربيعة الرأي وعبد الرحمن بن هرمز، حيث لزم الإمام مالك ابن هرمز فترة ثلاث عشرة سنة. يضاف إلى ذلك أن الإمام مالك كان من

٥ ـ انظر سهيل زكار ـ مائة اوائل طبعة دمشق دار حسان ١٩٨٩ ص ١٨٨ وما بعدها.

٦ ـ انظر عنه سهيل زكار المرجع السابق ص ١٩٢ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجدين في طلب العلم، يبذل جلّ طاقته الجسمانية والمادية للتحصيل، فقد ضحى بكل شيء في سبيل العلم، وتحمل المشاق في سبيل ذلك، وشغل نفسه بجمع الحديث النبوي، وكان صارماً مع نفسه في نفسه في هذه المسألة، فكان يطلب الحديث من العلماء الثقات.

أمضى الإمام مالك فترة طويلة من حياته يتلقى العلم بالمسجد أحياناً وفي بيته أحياناً أخرى، وكذلك فعل عند تفرغه لعملية التدريس، حيث بقي يفتي ويدرس في بيته حتى وفاته في سنة ١٧٩ هـ/٧٩٦ م(٧) كان رجال الحكم والسياسةو يهابونه إلى حد كبير، وكان زهده وإيمانه وسلوكه وتصرفاته تتسم بالجد والإخلاص، مقتدياً قدر الإمكان بالرسول الكريم (ص).

وقد شهد الإمام مالك نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وعاصر من الحكام الأقوياء أبو جعفر المنصور، الذي كان يعتبر أن كل من لا يتعاون معه مرتبطاً بقوة معادية له. وكان الإمام مالك قد أفتى بأحقية ثورة الإمام محمد النفس الزكية بقوله: "ليس على مستكره يمين"، فرأى المنصور بذلك معارضة لحكمه وسلطته، فأمر باعتقال الإمام مالك، وعرضه لشتى ألوان التعذيب والإهانة، وفي النهاية أطلقه واعتذر منه، وأقنعه بتأليف كتاب في الفقه والحديث سماه (الموطأ)(٨).

أما في الفقه فإن منهج الإمام مالك، كان يقوم على الاعتماد على كتاب الله أولاً، فإن لم يجد في كتاب الله نصاً، اتجه نحو السنة النبوية وأعمال الصحابة وأقضيتهم وعمل أهل المدينة، وبعد السنة كان يأخذ بقاعدة القياس.

٤ ـ الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ: هو محمد بن إدريس، الذي ولد بمدينة غزة، ونشأ بمدينة مكة المكرمة، وفيها نال قسطاً من المعارف الإسلامية واللغوية والأدبية، وعند بلوغه سن العاشرة اتجه نحو علم الحديث، وتعلم كلام العرب وشعرهم. ولما بلغ سن العشرين، رحل إلى المدينة المنورة والتقى بالإمام مالك ولازمه فترة تسع سنوات، ثم عاد إلى مكة، ومنها سافر إلى اليمن حيث كُلف في بعض الأعمال الإدارية، فقام بعمله بكل إخلاص واستقامة، لكن استقامته لم تعجب بعض الطامعين بالرشوة والفساد، الذي منع الشافعي وحظر من سلوك طريقهما، فاتهموه بالميول العلوية للدولة، وكتبوا بذلك إلى هارون الرشيد، فأمر بحمله إليه مكبلاً بالقيود. وفي بغداد التقى الشافعي بالرشيد بحضور محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، الذي تمكن من إنقاذ الشافعي، وبقي في بغداد مدة درس خلالها فقه الأصناف. ثم قضى مدة أخرى متنقلاً بين مكة وبغداد، انتقل بعدها إلى مصر حيث أقام حتى وفاته.

٧ ـ اضطر إلى البقاء في البيت ربما لأنه كان مصاباً بمرض سلس البول.

٨ ـ سهيل زكار ـ مئة اوائل ص ٢٠١ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعصر الشافعي كان عصر الجدل وعلم الكلام، كمناقشة فضائل الصحابة وصفات الله تعالى ومشاكل القول بالقدر، وقد اطلع الشافعي على هذه القضايا برمتها، وكانت له مواقف محددة منها، وقد اعتمد في هذه المواقف على القرآن الكريم والسنة النبوية وآراء الصحابة. وقد دمج الشافعي الكتاب والسنة، مع أنهما ليسا شيئاً واحداً، لأن القرآن اشتمل على بيان الكليات، وكثير من الجزئيات، والسنة أتمت بيان القرآن الكريم، وفصلت ما أجمل، ووضحت بعض ما قد يغمض على بعض الناس.

ولقد دافع الشافعي عن السنة دفاعاً شديداً، ليس فقط لأن في السنة وقائع التطبيق لما جاء في القرآن، بل رأى جماعة من معاصريه يحملون على السنة إلى درجة عدم الاعتراف بها، والمناداة بالإكتفاء بما جاء في القرآن الكريم.

أخذ مذهب الشافعي شكله النهائي في مصر، ثم انتشر في الشام والعراق وخراسان واليمن بعد ذلك(٩).

٥ ـ الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ: ولد أحمد بن حنبل بمدينة بغداد، ومات والده بعد ولادته بفترة قصيرة، فقامت والدته بتربيته ووجهته إلى العلم، فحفظ القرآن ودرس علوم العربية، ثم ركز علىدراسة الحديث وسيرة النبي (ص) وتاريخ الإسلام. فقد سافر كثيراً إلى البصرة والكوفة والحجاز واليمن وغيرها من أجل دراسة الحديث، الذي اهتم فيه حفظاً وتدويناً.

وقف ابن حنبل ضد فكر المعتزلة، الذي كان يشجعه الخليفة المأمون، ولاقى ابن حنبل كثيراً من العذاب لموقفه هذا، فقد سجن في عصر المعتصم، وضرب في سجنه، الذي بقي فيه ثمانية وعشرين شهراً، وظل رغم أنه أشرف على الهلاك متمسكاً بموقفه المعارض لفكرة تحكيم العقل الذي ينادي بها المعتزلة. وفي عصر الواثق أُطلق من السجن ومنع من الإفتاء والتدريس ومن أي نشاط، حتى طُلب منه ترك بغداد، لكنه تخفى عن الأنظار حتى مات الواثق، وجاء المتوكل الذي لم يأخذ بمبدأ المعتزلة، فتنفس ابن حنبل الصعداء من جديد وعاد إلى حياته الأولى.

ومذهبه الفقهي أكثر تشدداً من الشافعي ومن بقية المذاهب وإن كان قد سار على نهج الشافعي لكن بتشدد. وهو أقل المذاهب انتشاراً(١٠).

---

٩ ـ سهيل زكار ـ مئة اوائل ص ٢١٣ وما بعدها.

١٠ ـ سهيل زكار ـ مئة اوائل ص ٢٢٥ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع:

علوم اللغة العربية

اللغة العربية هي لغة عرب الجاهلية، مع وجود لهجات مختلفة باختلاف القبائل ومعاني لبعض الكلمات تختلف من لهجة إلى أخرى. وأوجه للصرف والنحو مختلفة، إلا أن القبيلة الواحدة تتكلم بلهجة واحدة وتتبع أسلوباً واحداً. وكان يوجد في الجاهلية على ما يظهر لغة راقية فصحى هي لغة الشعر، التي يفهمها الجميع ويتبعون فيها أصولاً متقاربة دقيقة للتخاطب، وفيها اختلاف بين القبائل.

وبعد ظهور الإسلام اختلط العرب الفاتحون بسكان البلاد المفتوحة، في السكن والتزاوج وفي كل مرافق الحياة. ولم تعد الدولة العربية مكونة من شعب واحد بلغة واحدة ونزعة واحدة ودين واحد، بل أصبحت رقعتها معرضاً تعرض فيه كل أمة ما كان من لغة وعلم ونظم سياسية واجتماعية، وإذا كان العرب قد شعروا أنهم دون هذه الأمم علماً وفلسفة ونظماً سياسية واجتماعية واقتصادية، فإنهم تغلبوا على هذه الأمم حربياً، وتغلبوا عليهم بنشر لغتهم ودينهم، وما لبثت اللغة العربية أن طغت على سائر اللغات المحلية وسادت عليها، وأصبحت الأداة لنشر الثقافة والحضارة بين هذه الأمم المختلفة، بعد أن زادت في مادة لغتها وتركيبها واساليبها، مما دعى إليه ارتقاء الحضارة واتساع العمران، وأصبح كل متأدب من أي جنس، إنما يجري حكمته أو أدبه أو شعره أو فلسفته وعلمه بالعربية(١).

علم النحو وقواعد اللغة:

يُروى أنه على أثر توافد الرقيق إلى المدينة عاصمة المسلمين الأولى، فشا اللحن فيها بكثرة أذهلت أولي الأمر، ففكر الإمام علي بن أبي طالب بوضع قواعد نحوية للغة ليتبعها الأعاجم فلا يخطئون، وفشا اللحن بعد ذلك في العراق، لإقبال الأعاجم على التكلم بالعربية، وكانت في

١ - انظر مقدمة ابن خلدون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العراق مدينتان عربيتان وسط محيط أعجمي هما الكوفة والبصرة، فأقبل العراقيون عليهما يتعلمون لغة أهلها، ووضع أبو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٧ هـ - ٦٨٧ م أساس علم النحو في مدينة البصرة، وقلّده أهل الكوفة بوضع قواعد نحوية، وعلى ذلك نشأت مدرستان للنحاة منذ العصر الأموي، مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة تنافستا على التسامي في الدراسات اللغوية والنحوية من منتصف القسم الثاني للعهد الأموي حتى استقطبا في مدرستين للنحو تبعهما كل العالم الإسلامي، ولم تظهر بعد توحدهما في مدرسة بغداد التي جمعت بين المدرستين، مدرسة للنمحو غيرهما. وقد أخرجت كل من المدينتين ثلاثة أجيال من فطاحل علماء النحو، فمن علماء الكوفة حماد الراوية، وأبو عمر والشيباني، وابن الأعرابي وأبو عبيدو الكسائي والفراء وابن منظور، ومن علماء البصرة: أبو عمرو ابن العلاء وأبو محرز خلف بن حيان الأحمر، وأبو عبيدة معمر بن المثنى. والأصمعي والجمحي.. والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه، والأخفش. وغالبية هؤلاء من أصل عربي، لأن فقه اللغة العربية والدراسات النحوية وما يتصل بها تتطلب السليقة العربية الأصيلة والمنطق السليم، وكل ما فعله غير العرب من هؤلاء العلماء، هو التنسيق العلمي. وإذا كان بعض الغربيين يرى في شهرة سيبويه المسلم الأعجمي في هذا الباب أثراً للاساس الأجنبي في قواعد اللغة والنحو والصرف، فإن الواقع يثبت أن علماء هذه الأبواب من المعرفة إنما أفادوا من العقلية العلمية الخصبة التي اكتسبوها في العصر العباسي الأول من خلال تمثلهم للثقافات الفلسفية والعلمية الأجنبية، وليس مما نقلوا أو طبقوا لغتهم على أصول ونحو اللغات الأخرى إذ اعتمدت كل مدرسة على لهجات قبائل معينة، وفتشت في القرآن وفي أشعار العرب على ما يؤيد مذهبها، وكثيراً ما احتدم الجدل العلمي بين نحاة البصرة الذين عرفوا باسم أهل المنطق لاتباعهم الأساليب المنطقية في أبحاثهم وبين نحاة الكوفة الذين خالفوهم واعتمدوا على السماع.

وأشهر علماء الكوفة: الكسائي الذي كان مهذباً لولدي الرشيد: الأمين والمأمون وهو فارسي الأصل. ثم تلميذه الفرّاء. والمفضل الضبي صاحب كتاب المفضليات.

وأشهر علماء البصرة: أبو الأسود الدؤلي واضع الحجر الأساس لعلم النحو، والخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض ومؤلف كتاب (العين) أول قاموس لغوي في العربية وسيبويه الذي نظم النحو ورتبه وبوبه، وجمع فيه خلاصة أبحاث من تقدمه من علماء النحو، وصار هذا الكتاب المرجع الأول لعلماء النحو من بعده يقتبسون منه ويحاكونه، والأصمعي وأبو عبيدة اللذان تألق نجمهما في عهد الرشيد، والمبرّد مؤلف كتاب الكامل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكل والتنقيط:

كانت الكتابة العربية قبل الإسلام نادرة الاستخدام، لا يعرفها إلا القليل، وكانت أحرفها بدون تنقيط، فالجيم تكتب كالحاء والخاء، والباء تكتب كالتاء والثاء، وكانت كلمة خبر يمكن أن تقرأ حبر، حير - جير، جبر، كما كانت الاحرف بدون شكل ليس لها علامات تشير إلى الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة، والمدة. وقد وضعت أدوات الشكل هذه في العصر الأموي لتساعد علىالقراءة الصحيحة، وأمر الحجاج من بعدها بتمييز الأحرف المتشابهة شكلاً، فوضع كاتباه وتلميذا أبي الأسود الدؤلي النقط لها، وهما نصر بن عاصم، ويحيى بن عامر وبذلك صارت الأبجدية كما نعرفها اليوم متميزة لا لبس في كتابتها ولا غموض(٢).

ويعتقد أن أبا الأسود الدؤلي، أول من ابتدع علم النحو، ووضع أساس الشكل للأحرف العربية، إنما استعان بطريقة السريان في وضع هذه الرموز، إذ كان كثير المخالطة لهم، وربما درس وتعلم على أيدي أساتذة منهم، واستمر استعمال الرموز التي اختارها أبو الأسود وتلاميذه من بعده للشكل سائداً طوال العصر الأموي ومطلع العصر العباسي، حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي فوضع رموزاً أوضح، جعل أساسها صور الحروف التي تتولد من مدها، فرسم الضمة واواً صغيرة توضع في أعلى الحرف، وجعل رمز الكسرة ياء صغيرة توضع تحت الحرف، ورمز الفتحة ألفاً مسطوحة تكتب فوقه(٣). وإذا كان الحرف المتحرك منوناً كرر رمز الشكل فيكتب مرتين... الخ.

المعاجم وفقه اللغة:

رغب بعض العلماء في عصر التدوين، بجمع كلمات اللغة ومفرداتها وتفسير معانيها المختلفة، فرحل أكثرهم إلى البادية يستمع إلى الأعراب ويدون ما يسمع من معانيها. وكانت أول كتبهم تضم المفردات دون ترتيب، ثم صاروا يجمعون الكلمات. وكانت أول كتبهم تضم المفردات دون ترتيب، ثم صاروا يجمعون الكلمات التي تتعلق بموضوع واحد، ويضعونها في باب واحد مثل كتاب الأنواء وكتاب الابل للأصمعي. ثم ظهرت الكتب التي تجمع بين دفتيها جميع الكلمات ومعانيها أي ظهرت القواميس المرتبة ترتيباً هجائياً وأولها كتاب العين للفراهيدي، وقد ابتدأه بالكلمات التي تنتهي بحرف الـ (ع) ثم اتبعها بالكلمات المنتهية بالأحرف الحلقية، وهكذا إلى الأحرف الشفوية ثم الأحرف الهوائية. ومن المعاجم الأولى كتاب (الجمرة في اللغة) لأبي

٢ ـ انظر عن ذلك ابن خلكان.

٣ ـ الفهرست لابن النديم ص ٤٠ و ٤٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكر بن دريد، والصحاح للجوهري، وأساس البلاغة للزمخشري، ولسان العرب لابن منظور، والمحيط للفيرز آبادي(٤).

البلاغة:

فسدت الملكة اللغوية عند العرب باختلاطهم بالأعاجم واستعمالهم الكلمات والتعابير العامة، فعمد العلماء إلى الكشف عن روائع أساليب القرآن وفصاحته وبلاغته، ليحاكيه المتأدبون، ويقلدوه، وتعرضوا لأقوال القدماء وشرحوا ما فيها من استعارات وتشابيه وأوجه بلاغية، وأشهر ما كتب في ذلك:

أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ/٨٢٢ م في كتاب مجاز القرآن. والجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م في كتابيه إعجاز القرآن والبيان والتبيين. وأبو الهلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م في كتابه الصناعتان الشعر والكتابة. والجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٩ م في كتابيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة.

العروض:

درس الخليل بن أحمد الفراهيدي أشعار العرب، فوجد أوزانها محدودة فحصرها في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً، ثم جاء الأخفش فزاد عليها البحر المتدارك، فأصبحت ستة عشر بحراً. ووضع العلماء للشعر مصطلحات خاصة حتى أصبحت علماً عُرف بالعروض.

الشعر:

سنتعرض لهذا الفن حسب العصور المتتالية. ففي الجاهلية شكل الشعر ديوان العرب ومجمع مآثرهم ومفاخرهم، وسجلاً لأعمالهم وتقاليدهم وعقائدهم، وكانت القبائل تفتخر بنبوغ شاعر منها يذود عن حياضها ويدافع عنها، ويهجو أعداءها ويحمس شبابها في القتال، وكانت تقام للشعر مباريات في الأسواق كسوق عكاظ، وقيل أن القصائد الجاهلية كانت تعلق على الكعبة تقديراً لها، وبلغت قبل الاسلام سبعاً وقيل عشراً.

وفي صدر الإسلام نزل القرآن الكريم بلغة عربية فصحى، لا هي شعر ألفه العرب، ولا نثر عرفوه، بهرهم جماله، وقهرتهم قوته، فانصرفوا عن الشعر إليه يقرأونه ويتفهمون آياته، وكان لمعاني القرآن واسلوبه وللمثل العليا الدينية الجديدة والفضائل، التي طلب الإسلام من أتباعه

٤ . الفهرست لابن النديم ص ٤٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التحلي بها أن تأثر الشعر العربي بها في أغراضه ومعانيه وكلماته وأبوابه، فذكرت الجنة والنار، والثواب والعقاب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشعر. وكان أبرز شعراء هذا العصر حسان بن ثابت الأنصاري، وعبد الله بن رواحة.

أما في العصر الأموي، فقد استرد الشعر قيمته بعد كبوته لأسباب مختلفة منها، تشجيع الخلفاء والأمراء للشعر والشعراء لأغراض سياسية وقومية، وإغداق الأموال عليهم وتقريبهم كما كان شأن الأخطل وجرير والفرزدق في عهد عبد الملك بن مروان، حيث النزاع الحربي بين الأمويين ومعارضيهم من العلويين والخوارج والزبيريين، فعمد كل فريق إلى الشعر يؤيد دعواه ويجلب له الأنصار ويهاجم خصومه ويفند مزاعمه، فنشأ الشعر السياسي، الذي لم تعرفه الجاهلية كشعر الطرماح شاعر الخوارج، وعبد الله بن قيس الرقيا شاعر الزبيرية، ومضر الكميت الأسدي شاعر الشيعة. ومنها أيضاً الترف، حيث عمد معاوية بن أبي سفيان بعد أن نقل عاصمته من الحجاز إلى الشام، إلى الإغداق على أهل الحجاز حتى يلهيهم بالأموال عن فقدان مركزهم السياسي، ففشا الترف بين شباب الحجاز واندفع بعضهم وراء اللذائذ يتصيدها، وظهر ذلك في شعرهم الغزلي الرقيق كشعر عمر بن أبي ربيعة. وظهر في بعض القبائل غزل شريف تنزه عن الفحش، وكان أكثر ما يكون في بني عذره وخزاعة بالغزل العذري كشعر جميل بثينة، وكثير عزة.

وفي العصر العباسي، الذي ماكاد يبتدئ حتى ظهرت آثار الحضارة العربية الزاهرة في كل فن من الفنون، وفي كل ناحية من النواحي الاجتماعية، وظهر ذلك كله جلياً واضحاً في الشعر. فمجالس الخلفاء والأمراء وما فيها من شراب وقيان ومغنين ومغنيات، وحياة بغداد وما فيها من سعة وبهجة، وعادات الأمم التي تكون منها مجموع السكان، وميلهم إلى الانغماس في الملذات، وتشجيع الخلفاء والولاة وأمراء الدويلات المستقلة وظهور المتكلمين، ووصول الفلسفة والمنطق اليونانيين إلى العرب. كل هذا جعل الشعر العربي يصل في هذا العصر إلى درجة الكمال وتعدد الأبواب والأغراض وتنوع الأسلوب، وأهم ما طرأ على الشعر:

تنوع الشعر الوصفي، فوصف الشعراء أحوال النفس وانفعالاتها. ووصفوا المعارك، كأبي تمام والمتنبي، ورسموا صوراً قوية لمجالس الشراب واللهو والتهتك كأبي نواس والحسين بن الضحاك وبشار بن برد.

ظهرت الشعوبية في أشعارهم الأعاجم لتقاوم العزة القبلية والعصبية للقومية العربية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقت ألفاظ الشعر، واتسع خيال الشعراء، وازداد تأنقهم واهتم بعضهم بالبديع والتكلف اللفظي والصناعة كشعر أبي المعتز والوأواء الدمشقي.

كما تنوع الأسلوب فظهر الشعر الغزلي الرقيق، الذي يدل على حياة الرفاه الجديدة البعيدة كل البعد عن حياة العرب الأولى، وظهرت الإشادة بالخمرة ووصف آنيتها وشرابها كشعر أبي نواس وبشار، وحاول جماعة من الشعراء الوقوف في وجه تيار اللذة والغزل، فأكثروا من الزهد في شعرهم كأبي العتاهية، واستخدم غيرهم المذاهب الفلسفية والتصوف في شعره، كالمعري وابن سينا وابن الفارض والحلاج، واقتبس بعضهم حكم الفرس والهند واليونان وعقدها شعراً خالداً كأبي تمام والمتنبي أيضاً، ولم تترك ناحية من نواحي الحياة العامة، إلا تطرق إليها الشعراء، ووصفوها، حتى القصص على لسان الحيوانات كقصائد لافونتين الشاعر الفرنسي، فقد نظم مثلها شعراء العرب كأبان اللاحقي الذي نظم كتاب (كليلة ودمنة) وقد حافظ هؤلاء الشعراء على أوزان الشعر الجاهلي وقوافيه، وتكررت ألفاظهم، وأكثروا من العناية بالصناعة والبديع والتكلف اللفظي.

وفي الأندلس نافس خلفاء الأندلس، خلفاء بغداد في الاغداق على الشعراء ورعايتهم وتشجيعهم، وامتاز الشعر الأندلسي باتساع أفق الخيال والدقة في وصف مجالس الشراب والحدائق والطبيعة والقصور، ومال شعراء الأندلس إلى الأوزان القصيرة، وابتدعوا نوعين من الشعر هما، الموشحات التي لا تلتزم فيها قافية واحدة ولا وزن واحد، والزجل وهو شعر عامي لا يتقيد بقواعد اللغة وأصولها، وأشهر شعراء الموشحات أحمد بن عبد ربه، ولسان الدين ابن الخطيب، وأشهر الزجالين أبو بكر بن قزمان القرطبي.

النثر والخطابة:

في الجاهلية طغى الشعراء على جميع فنون الأدب الجاهلي، وقد وصلتنا نماذج محدودة من سجع الكهان وخطب بعض الجاهلية مثل أكثم بن صيفي، وقيس ابن ساعده الأيادي.

وفي صدر الإسلام، شجع الإسلام الخطابة، وجعلها واجباً في مواسم معينة كالجمعة والعيدين، ونزل القرآن نثراً لا شعراً، وكتب الرسول (ص) رسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام بأسلوب نثري، فارتفع شأن الكتابة والخطابة، واقتبس الكتاب أسلوب القرآن والحديث وتأثروا بما فيهما من بلاغة، وامتاز النثر في صدر الإسلام بإيجازه وبلاغته وهجره سجع الكهان واغترافه من معاني الإسلام، وأشهر الخطباء الرسول (ص) والخلفاء الراشدون وسحبان وائل وآخرون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي العصر الأموي أوجد معاوية بن أبي سفيان ديوان الرسائل، وأفرد له الموظفين المختصين، فأقبل الأعاجم على العربية يدرسونها ويتعلمونها حتى يحظوا بمقام مرموق في الدولة، وما لبثت الكتابة أن أصبحت في أواخر العصر الأموي صناعة خاصة لها نظمها وأساليبها، فقد تحولت من البساطة والإيجاز إلى التوسع في الأسلوب وتنوع الأغراض والمبالغة بفضل عدد من الكتاب غير العرب، الذين نقلوا أساليبهم القديمة إلى العربية مثل عبد الحميد الكاتب، الذي يُعد أول من أطال الرسائل وفتق أكمام البلاغة. ووصلت الخطابة في هذا العصر إلى القمة للحاجة الماسة إليها في الدعاية السياسية للأحزاب المختلفة، تثور على الأمويين وتحاول الإنقاص من سلطتهم السياسية، ولا تزال الخطب التي وصلتنا عن هذا العصر تعد نموذجاً رفيعاً لفن الخطابة العربية، كخطبة الحجاج في أهل العراق. ومن أشهر خطباء هذا العصر، معاوية، وعبد الملك، والحسين بن علي، وابن الزبير، والمختار بن أبي عبيد الله الثقفي، وقتيبة بن مسلم وغيرهم.

وفي العصر العباسي كثرت الترجمة وراجت صناعة التعريب، واضطر المترجمون إلى التفتيش عن معاني جميع الاصطلاحات والكلمات الأعجمية، في جميع العلوم والفنون التي تعرضوا لترجمتها كالفلسفة والمنطق والأخلاق، والطب والفلك والكيمياء والرياضيات، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً منقطع النظير، لمرونة اللغة العربية وسعة باب اشتقاقها، وبذلك ظهرت الكتابة العلمية إلى جانب الكتابة الأدبية في مختلف أبوابها من الرسائل الإخوانية إلى الرسائل الإدارية والسياسية إلى صنعة الكتابة، التي ظهرت في المقامات، وكثير من كتاب هذا العصر وعصر الدويلات المنفصلة، وصل إلى أرقى المراتب السياسية، فاستلم الوزارة وسمي بذي الرياستين، رياسة القلم ورياسة السيف، ولهذا أصبحت الكتابة فناً خاصاً، له أساليبه وأدبه، حتى وضع بعضهم الكتب المختلفة في أدب الكتابة وصناعتها وحاجات الكاتب كما فعل القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى).

وأشهر كتاب هذا العصر، ابن قتيبة مؤلف عدد كبير من الكتب الأدبية منها: أدب الكاتب، عيون الأخبار، المعارف، الشعر والشعراء، الذي نادى فيه بالتجديد وأنحى باللوم على كل قديم. وعمرو بن بحر الجاحظ ومن مخلفاته كتاب الحيوان، وفيه كثير من تحري القضايا العلمية ومن الملاحظة والتجربة، وكتاب البخلاء وكتاب البيان والتبيين. وبديع الزمان الهمذاني والحريري ويعدان من أشهر من كتب في المقامات(٥)

أما الخطابة فلم ترق إلى ما رقي إليه الشعر والنثر، ذلك لأن الدولة اعتمدت إلى حد كبير

٥ . معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ الإسلامي لفؤاد السيد . طبعة بيروت . دار العلم للملايين ١٩٩٠ ص ٦٨ و ٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الفرس والأعاجم، وهم لا يتقنون العربية ولا يتأثرون ببلاغة خطبها، التي تدعو إلى قتال أو تأييد فكرة، ولأن العباسيين وأمراء الدويلات المستقلة شجعوا الشعراء والكتاب والمؤلفين ولم يشجعوا الخطابة بالمقدار نفسه، باستثناء الخطب الدينية في المساجد التي خبا نورها في عصر الدويلات، وأصبحت تقليداً رئيساً للأقدمين، ثم عادت إلى القوة والنضج إبان الحروب الصليبية لتشجيع الناس وحضهم على الجهاد والتطوع للقتال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل العاشر:

الزهد والتصوف

على الرغم اختلاف التيارات العلمية، ونوع العلوم لدى العرب، إلا أنها جميعها تعتمد على العقل في الحصول على المعرفة إلى حد كبير، وذلك من أجل تلبية حاجات الإنسان في الدنيا. ومع ذلك فقد وجدت مجموعة مهمة ضمن المجتمع العربي، تمردت على العقل كوسيلة إيجابية من أجل المعرفة، وعزفت عن أغراض الدنيا بقصد الفوز في الآخرة. وكان سبب هذه النزعة في البداية، يكمن في تناحر وتقاتل العرب المسلمين على السلطة وملذات الدنيا. وقد تطورت هذه المجموعة مع الأيام، وكونت اتجاهاً فكرياً كان له أثره الكبير في الحياة الفكرية والاجتماعية فيما سمي بحركة (الزهد والتصوف) التي يمكن تعريفها بأنها فلسفة حياة تهدف إلى السمو بالنفس الإنسانية أخلاقياً، عن طريق رياضات عملية معينة، تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى (الله) وثمرتها السعادة الروحية.

وقد تعددت النظريات عن اصل التصوف، فمن قائل بأصل هندي له محتجاً بكثرة المتصوفة الإيرانيين، ومن قائل بأصل مسيحي بحجة وجود مصطلحات، ومن قائل بأصل يوناني محتجاً بوجود أفكار فلسفية يونانية فيه، لكن الأرجح أن أصوله عربية إسلامية، لحقت به تأثيرات مختلفة من شتى المصادر عبر مرور الأيام.

ففي القرنين الأول والثاني الهجريين، ترفع المتصوفة عن شهواتهم وأهوائهم بمحض إرادتهم، نضرب على ذلك النوع من التصوف مثلاً، بذكر بعض المتصوفة، كأبي ذر الغفاري بالمدينة المنورة، الذي اشتهر عنه تقلله من متاع الدنيا وملذاتها. وكان يبقى نهاره كله يتفكر فيما هو صائر إليه، ويرى تحريم إدخال ما زاد على نفقة اليوم، وكان بيته خالياً من الأمتعة.

جاء بعده في المدينة المنورة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، الذي عُرف بتقشفه في لباسه وطعامه، ويعمل بيديه لكسب عيشه. وسأله مرة الخليفة الوليد بن عبد الملك: ما أحسن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جسمك، فما طعامك؟ فأجابه: الكعك والزيت. وصادفه سليمان بن عبد الملك حينما دخل الكعبة فقال: سلني حوائجك؟ فقال: والله لا سألت في بيت الله غير الله(١).

واشتهر بالبصرة الحسن البصري بزهده، الذي كان قائماً على الخوف من الله والحزن والتفكير من أجل الوصول إلى الظفر برضا الله تعالى وجنته في الدار الآخرة، حتى قيل قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده، ولا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة.

ولم تكن هذه الحركة انعزالية عن المجتمع، كما لم تكن تشدداً في الدين، بل كانت تريد توجيه النظر وتركيز الاهتمام على جانب منه يدعو لهذا النوع من الحياة، ففي القرآن الكريم العديد من الآيات، التي تصور الحياة الدنيا على أنها لعب ولهو، وهي زائلة لا محالة وهي متاع الغرور من ذلك الآية القائلة: اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

بعد مرحلة الزهد الذي اقتصر على فكرة مجانبة الدنيا آملاً بالظفر بثواب الآخرة، والذي كانت وسائله العيش في بساطة والتقليل من المأكل والمشرب والإكثار من العبادات، مع المبالغة في التصور بالخطيئة والخضوع لمشيئة الله، واتخذ دافعاً له الخوف من الله.

إلا أنه في الفترة المتأخرة ظهر زهاد من نوع جديد يمكن اعتبارهم مرحلة انتقال من الزهد إلى التصوف، كابراهيم بن أدهم المتوفى سنة ١٦١ هـ، وكان من أمراء بلخ، فزهد في الحكم ولبس الصوف وطاف في البلدان. وظهر عليه الخوف كما ظهر على الذين سبقوه، لكنه أضاف شيئاً جديداً وهو الإلتفات إلى الباطن.

لكن القفزة الأوسع من الزهد إلى التصوف تمثلها أم الخير رابعة العدوية البصرية، التي كانت كغيرها من الزهاد بترفعها عن مكاسب الدنيا والإكثار من العبادة وكثرة البكاء والحزن، حتى قال بعضهم كان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من كثرة دموعها، وكذلك عرف عنها الالتفات نحو الباطن وإظهاره(٢).

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين، تغلب التصوف على الزهد، وظهر علم التصوف. فبعد أن كانت حركة الزهاد طريقة للعبادة أصبحت طريقة للمعرفة، واصبح التصوف علماً خاصاً،

١ . الذهبي العبر ١/٩٩ وسير اعلام النبلاء ٥/٣٨ طبقات ابن سعد ٥/٥٣٧ ابن كثير البداية والنهاية ١٠/٩/٢٣٥ ـ ٢٤٤ .
٢ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢١٥ ابن كثير البداية والنهاية ج١٠ ص ١٨٦ ـ الذهبي ـ سير اعلام النبلاء ج ٨ ص ٢٤١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعرف الصوفية بعدة أسماء أشهرها علم الباطن وعلم الحقيقة، مقابل علم الظاهر وعلم الشريعة، أي علم الفقه الذي بحث في الأعمال الظاهرة من أحكام وعبادات.

أما علم الصوفية أو الباطن أو الحقيقة فهي أعمال القلوب، وعلمهم في ذلك يختلف في منهجه عن غيره، بينما تعتمد تلك العلوم على العقل في الوصول إلى الحقيقية، يعتمد التصرف على الكشف الذوقي والحياتي، الذي يتحقق به العبد على سلك طريقتهم، لكن الصوفية حينما تعمقوا في طريقتهم هذه، ظل قسم منهم ضمن إطار الشريعة في عرف جمهور الفقهاء، وبمجاوزة عدد منهم. ويتبين ذلك واضحاً من خلال استعراض القضايا التي خاضوا فيها.

وأول هذه القضايا، المعرفة على الطريقة الصوفية. ومن أوائل القائلين بها، أبو سليمان الداراني نسبة لداريا المتوفى سنة ٢١٥ هـ، القائل بأنه لا يزهد في شهوات هذه الدنيا إلا من وضع الله في قلبه نوراً يشغله دوماً بأمور الآخرة، وهو يعبر عن فكرة النور الذي يقذفه الله في القلب، والذي هو أساس المعرفة الصوفية. وجاء بعده ذو النون المصري، الذي تكلم بكلام أكثر دقة عن هذه المعرفة بالتمييز بينها وبين غيرها، فهناك معرفة التوحيد للعامة، وطريقة الوصول إليها الرواية. ومعرفة الحجة والبيان، وهي للعلماء والحكام والبلغاء، وطريقة الوصول إليها العقل. ومعرفة صفات الوحدانية والفردانية، وهي طريقة معرفة الصوفية وطريقتها الذوق المباشر.

أما الموضوع الثاني من موضوعات التصوف لهذه الفترة، فهو الأخلاق، لذلك بحثوا في النفس الإنسانية وصنفوا قواها، وبينوا آفاقها وطريق الخلاص منها. ومن أوائل الذين بحثوا في النفس، الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ، وقد سمي المحاسبي بهذا الاسم لمحاسبته لنفسه، وكانت الغاية كشف ما هو مذموم منها للخلاص منه، وفي رياضاتهم أو مجاهدتهم، التي يقومون بها للخلاص، كانت لهم مقامات، وهي أشبه بالمحطات التي يقطعونها، التوبة الصبر، الرضا والتوكل، التقوي، الخوف، الرجاء، المحبة، وللتدريب على السير في هذا الطريق، ظهرت بداية الطرق الصوفية، ويمكن تعريف الطريقة، بأنها مجموعة الآداب والاطلاق التي تتمسك بها طائفة الصوفية، وفيها يقوم الشيخ بتدريب تلميذه (المريد) على سلوك الطريق، وأول هذه الطرق هي الملامثية وشيخصها حمدون القصار، ويلح بعضهم على وجود الشيخ المربي حتى قال بعضهم، إن الشجرة إذا ثبتت نفسها من غير غارس تورث ولا تثمر وكذلك المريدين من غير أستاذ.

وخلال سير الصوفي في هذا الطريق وسلوكه حسب اصطلاحهم يمر بأحوال متعددة، كالقبض، والبسط، والغناء، والهيبة، والأنس، وهي أحوال نفسية غير دائمة، وأهم هذه الأحوال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو حال الغناء، الذي كان له أثر كبير في الصوفية خلال هذه الفترة والفترة التالية، والذي أدى إلى اعتبار بعض الصوفية، الذين مروا بهذا الحال مارقين عن الدين.

في القرن الخامس الهجري، استمر اتجاه التصوف، الذي يتقيد فيه أصحابه بالكتاب والسنة، وتدهور اتجاه الشطح. وبرزت شخصيات صوفية متعددة قادت الهجوم عليه، من أشهرهم أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، الذي تثقف وتربى تربية صوفية، وأخذ علم الكلام على الأشاعرة إضافة إلى تعليمه علوم الدين ومعرفته الواسعة بالفلسفة. وقد درس بالمدرسة النظامية ببغداد. وقد اعترته عدة حالات وجدانية كالشك والقلق النفسي والكآبة والحزن العميق والخوف من المجهول ومحاولة إدراك حقيقة الكون بعدما تبين له عجز العلوم التي تعلمها على سعتها عن تحقيق الغاية. فأقبل على حياة من نوع جديد، فترك منصبه وأقبل على حياة الزهد والعبادةوالتكامل الروحي، والأخلاقي. وذهب للحج وحينما غادر الحجاز دخل دمشق فاعتكف ودرس بزاوية المسجد الأموي في الجزء الغربي منه، ويقال أنه زار بيت المقدس ومصر، ثم عاد أخيراً إلى موطنه وبيته حيث لقي وجه ربه(٣).

كان الغزالي خصب الإنتاج يقدر شراح كتابه (إحياء علوم الدين) بثمانين من الكتب والرسائل، وهي في مجالات عدة كالفقه والأخلاق وعلم الكلام والجدل والفلسفة. وقد هاجم عدة علوم وبخاصة علوم الفلسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة) ومن المسائل التي هاجمها:

القول بقدم العالم، ونفي علم الله بالجزئيات لأنها متغيرة ومن شأن تغيرها تغير علم الإله حسب رأيه، وأخيراً إنكار الفلاسفة حشر الأبدان يوم القيامة، وإنكارهم للجنة والنار. وهاجم الغزالي المتكلمين لقصورهم عن منافحة الفلاسفة، لأنهم اعتمدوا على أسلحة خصومهم، واعتمادهم على استخراج مناقضات هؤلاء الخصوم لافحامهم، كما كان يرى أن كثرة الجدل في الدين على طريقة المتكلمين مضيعة للوقت، تعيق الإنسان الذي يريد التكامل الروحي، والوصول إلى حقائق المعرفة. ومن الذين هاجمهم الغزالي، وكانوا يشغلون دوراً هاماً في الحياة الفكرية في عصره، الباطنية الذين كانوا يُعدون أنهم أصحاب التعليم المختصين لأنهم يقتبسون عن الإمام المعصوم.

تصوف الغزالي:

يصف الغزالي الطريق التي يسلكها المريد بغاية الترقي الخلقي، بالمجاهدة للنفس وإحلال

٣ . انظر البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٣ ابن الأثير الكامل في التاريخ ٨٦٠ ص ٢٩٤ الصفدي الوافي بالوفيات ج١ ص ٢٧٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخلاق المحمودة محل المذمومة، وذلك بالرياضة الصوفية، التي يقوم بها السالك في البداية على شيخ، لأن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة، ولا بد للشيخ هنا أن يراعي الفروق الفردية، فيعرف أخلاقهم وأمراضهم كي يتم له تطبيب قلوبهم، كل فيما يلائمه من التكاليف والرياضات، لأنه إذا لم يراع ذلك يكون كالطبيب الذي يعالج مرضاه كلهم بدواء واحد فيؤدي إلى قتلهم. ويشير الغزالي على المريد بالتزام الخلوة والصمت والجوع والسهر. فالخلوة ضرورية لتفريغ القلب من الشواغل الدنيوية، التي تشكل أكبر العقبات على الطريق.

في نهاية هذا الطريق يصل السالك إلى المعرفة الصوفية معرفة الله، وتتميز هذه عن غيرها بأن أداتها ليست الحواس ولا العقل بل القلب، الذي لم يكن في عرفه تلك المعضلة المعروفة، وإنما اللطيفة السربائية الروحانية، التي هي حقيقة الإنسان حسب تعبيره.

لهذه المعرفة ثمرات، منها حب الله، إذ لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه. والثمرة الثانية هي إلغاء بالتوحيد، ويكون ذلك بعدم رؤيته إلا لله، فهو لا يرى العالم على أساس فيذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر. بل ينظر إلى ذلك كله من حيث أنه صنع الواحد الحق، فكل العالم إذن تصنيف الله.

أما الثمرة النهائية لمعرفة الله فهي السعادة، ذلك لأن سعادة كل شيء في رأيه هي اللذة التي تكون بمقتضى طبعه، فلذة العين مثلاً في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، ولذة القلب معرفة الله. وهذه اللذة هي أكبر اللذات، لأنه ما دامت اللذة ثمرة المعرفة، فكلما كان المعروف أجل كانت الذة أكبر، وليس هناك أجل من الله، فاللذة أو السعادة الحاصلة من معرفة الله، فإنها بالعكس تكون أقوى، لخروج الإنسان من الظلمات إلى النور.

التصوف الفلسفي:

في القرنين السادس والسابع الهجريين، ظهر نوع جديد من التصوف امتزج بالفلسفة الأجنبية، وبخاصة اليونانية والهندية والفارسية، ولكن أصحابه لم ينسخوا هذه الفلسفات نسخاً، بل أخذوا ما يلائم منها وصبغوه بصبغة خاصة.

وإذا كان هؤلاء يتفقون مع غيرهم من الصوفية السابقين لهم من ناحية المجاهدات والمقامات والأحوال، ومع أهل الشطح من ناحية الشطحات، إلا أنهم اختلفوا عن أولئك بأمور متعددة، منها اتجاههم لوضع نظريات جديدة في الوجود، والتركيز على قضية الكرامات أي الأعمال الخارقة التي لا تستطيع الطبيعة البشرية القيام بها، والقول بترقي أفراد منهم إلى سوية أعلى من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأنبياء في بعض الحالات، وذلك واضح في نظرتهم في القطب ومعاناة رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يورث مقامه الآخرون أهل العرفان، فهو معادل بذلك للإمام المعصوم عند الشيعة الإمامية وكذلك قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قالت الشيعة بالنقباء، وكذلك رفعوا خرقة التصوف إلى علي بن أبي طالب ضمن هذه الاعتبارات العامة ظهرت نواحي مسيرة لأعلام كبار من الصوفية من هذا النوع.

أولهم في هذا المضمار السهروردي أبو الفتوح يحيى بن حبش، الذي مات بحلب مقتولاً بأمر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ هـ، وكان عارفاً بالفلسفة القديمة أو الحكمة وتسمى حكمته (الإشراقية) من الإشراق أو الكشف، الذي هو منهج المعرفة عند الصوفية، وله نظرية في الوجود مشتقة من نظرية الفيض، ومعناه أن العالم قد انبثق من الألوهية بالفيض دون أن ينقص منها شيء، كانبثاق النور من الشمس. وفي رأيه توجد ثلاثة عوالم فائضة، عالم العقول ومن جملها، العقل الفعال أو روح القدس، والثاني عالم النفوس المدبرة للأفلاك السماوية والأجسام الإنسانية، والثالث عالم الأجسام العنصرية. ثم يضيف عالم المثل وموقعه بين عالم العقول وهو أنوار محضة، وبين عالم المحسوس أو الأجسام العنصرية، والنفس الإنسانية في رأيه، هي من عالم النفوس الجزئية في الأصل، ولكن يشغلها عن العودة إليه، ومن ثم الاتصال بعالم الأنوار القوى البدنية، إلا أن الرياضة والمجاهدة تضعف سلطان القوى البدنية، فتتصل الروح بعالمها وتتمتع بالإشراق في عالم الأنوار. وهنا يتفق مع بقية الصوفية بضرورة المجاهدة للوصول إلى المعرفة الإشراقية والسعادة، ولكنه يقول بضرورة البحث ومعرفة الفلسفة، وفي هذا يختلف عنهم، وطبقاً لرأيه هذا يقسم مراتب الحكماء إلى حكيم إلهي متوغل في التأله عديم البحث، وحكيم بحاث عديم التأله وهو كمشاهير الفلاسفة القدماء والمسلمين، وحكيم متوغل في التأله والبحث. والقطب وهو خليفة الله، ولا يخلو منه العالم ولم يصل منهم إلى هذه المرتبة إلا هو. ربما يعتبر هذا المقام أعلى من الأنبياء لذلك حكم بكفره وقتل(٤).

ابن عربي. وهو صوفي أندلسي أصله من مرسية بشرق الأندلس، جاب عدة بلدان في المغرب ومصر وآسيا الصغرى، وفي نهاية الأمر استقر بدمشق ومات فيها سنة ٦٣٨ هـ. ويُعد الواضع الحقيقي لمذهب وحدة الوجود. وملخصه، أنه من غير الممكن أن يُخلق العالم من العدم، ولذا فإنه خُلق من الألوهية على أساس الفيض. ويوضح ابن عربي أن الحكمة من خلق العالم بهذا الشكل بتفسير الحديث القدسي: كنت كنزاً مخفياً لم أُعرف فخلقت الخلق وفيه عرفوني.

٤ ـ النعيمي الدمشقي ـ الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١ كرد علي خطط الشام ج ٤ ص ٥٥ وما بعدها. وانظر كتابنا الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي ص ٢٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان تلاميذه كثر استمروا حتى العصر الحديث، فمن مشاهيرهم في مطلع العصور عبد الغني النابلسي. ويعد الأمير عبد القادر الجزائري المتوفى سنة ١٨٨٣ م من أتباع مذهبه. ويصل هذا المذهب إلى الوحدة المطلقة على يد ابن سبعين، الذي هاجر من مرسية ٦٤٠ هـ إلى شمال إفريقية، ومنها إلى مصر فمكة حيث بقي إلى أن توفي بصورة غامضة ٦٦٩ هـ. ويعرف مذهبه بأنه مذهب الوحدة المطلقة، ومؤداها إلى أن الوجود واحدوهو وجود الله فقط، أما سائر الموجودات الأخرى فوجودها هو عين وجود الواحد وليست زائدة عليه(٥).

وفي هذه الفترة المتأخرة عاد للظهور شعر الحب الإلهي، الذي عرف عند رابعة العدوية، لكنه امتزج الآن بالأفكار الصوفية، كما يظهر عند ابن الفارض، الذي يعبر شعراً عن قضية الفناء بالله المعروفة في القرنين الثالث والرابع، ويتخذ هذا الفناء عنده شكلان، أولهما الفناء عن شهود الغير والعالم، والاستغراق في الله وفي حبه، والشكل الثاني الفناء عن غير إرادة محبوبة، وهو الله أو أن يفنى في إرادة محبوبه كتعبيره عن ذلك رمزياً بقوله:

ولو خطرت لي في سواك إرادة ... على خاطري سهواً قضيت بردتي
لك الحكم في أمري فما شئت فاصفي ... فلم تك إلا فيك لا عنك رغبتي

الطرق الصوفية:

على الرغم من هذا التصوف الفلسفي، فقد استمر تصوف الغزالي قائماً، وإن انقلب إلى فلسفة حياة أو طريقة بالنسبة لقطاع من المجتمع العربي الإسلامي، وتكونت من هؤلاء جماعات يجمع كل منها اسم طريقة، وأتباعها عبارة عن مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين ويخضعون إلى نظام دقيق في السلوك الروحي، ويعيشون حياة جماعية في الربط والزوايا والخانقاهات، أو يجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة.

وأخذت كل طريقة اسم رئيسها، لكن الاختلاف بينها كان في الوسائل والطرق والقواعد والرسوم، لكنها كانت متفقة في الجوهر، وهو تحقيق التكامل الخلقي.وأشهر هذه الطرق:

القادرية، نسبة لشيخها عبد القادر الجيلاني، والرفاعية نسبة للشيخ أحمد الرفاعي، والشاذلية نسبة لأبي الحسن الشاذلي، التي ظهرت في المغرب ومنه انتشرت في المشرق وبخاصة في مصر(٦).

---

٥ ـ انظر تفصيلات واسعة في كتابنا الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ١٧٤ وما بعدها.

٦ ـ انظر عن هذه الطرق كتابنا، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ص ٣٢٥ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الحادي عشر

المؤثرات الحضارية العربية في الغرب الأوروبي وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى

أصبح من المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية، قد انتقلت إلى أوروبا خلال الفترة المتأخرة من العصور الوسطى. وأدت دوراً إيجابياً في انتقال أوروبا لعصر النهضة، وذلك عبر قنوات ثلاث هي المشرق وصقلية والأندلس.

وإن نظرة فاحصة للمنقول من عناصر الحضارة العربية الإسلامية والطريق الذي عبره، تدلنا على أن الأندلس كانت الجسر الأهم في عملية انتقال الحضارة العربية، ذلك لأن الاحتكاك الأوروبي بالعرب، استمر مع المشرق وصقلية فترة ثلاثة قرون، بينما استمر ثمانية قرون مع الأندلس في ظل السيادة العربية عليها(١) وبقي الوجود العربي بعد ذلك متمثلاً في مجموعة بشرية في ظل السيادة الإسبانية، وأُطلق على أفراد هذه المجموعة اسم (المدجنون) وهم الذين سمح لهم بالاحتفاظ بدينهم، واسم (الموريسكيون) وهم الذين أُجبروا على التنصر(٢).

توفرت خلال هذه الفترة جميع العناصر والسبل الملائمة للنقل، فلم تتوقف أو تضعف عملية النقل بضعف العرب في الأندلس، بل ازدادت هذه العملية رواجاً ونشاطاً، وقد أسهم في عملية النقل منذ البداية المستعربون الإسبان، لأنهم كانوا على علاقة طيبة بدول أوروبية متعددة، مثل كونت وكونتية برشلونة في فترات متفرقة، وقد ساهم في هذه المهمة معرفتهم للغة العربية إلى جانب اللغة الإسبانية(٣).

---

١ ـ استمر هذا الاحتكاك منذ الفتح العربي للاندلس اواخر القرن الأول الهجري حتى سقوط غرناطة اواخر القرن التاسع الهجري.

٢ ـ عاش افراد هذه المجموعة في الأندلس إلى ان أُجلوا عنها قسراً اوائل القرن السابع عشر للميلاد.

٣ ـ احمد بدر ـ تاريخ الأندلس طبعة دمشق ١٩٨٣ ص ٣٩٨ سعيد عاشور حضارة ونظم اوروبا في العصورالوسطى طبعة بيروت ١٩٧٦ ص ٣٦٠ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يضاف إلى كل الذي تقدم من عوامل، أن الأندلس كانت متقدمة في ميدان العلوم إلى حدٍ لم يكن متوفراً لصقلية، وإذا توفر ما يساويه في المشرق العربي فإن طبيعة الغزاة هناك ومقدار الاحتكاك قللا من تأثيره، هذا بالإضافة إلى أن المشرق العربي في أواخر العصور الوسطى كان يعاني من موجة جمود وانحطاط على الصعيد الحضاري، بينما شغلت الأندلس دوراً فعالاً تجسد في حفظ الثقافة العربية، وأضافت إليه أشياء كثيرة جديدة ومبتكرة، كما في العبقريات الفكرية التي ظهرت آنذاك كابن رشد وابن الطفيل وابن باجة وابن خلدون.

وبلغت الأندلس ذروة نشاطها في هذا المضمار في عصر الخلافة الأموية(٤) التي ازدهر نشاطها الاقتصادي، وبلغ نفوذها السياسي ذروته، فشمل سلطانها المباشر وغير المباشر أسبانيا جميعها، وتوسعت خارجها في شمال إفريقية وعلى شواطئ البروفانس، فازداد نشاطها التجاري والدبلوماسي. وقام جماعة من الأندلسيين يدعون بالبحريين بالنزول في منطقة البروفانس في الجنوب الشرقي من فرنسا الحالية والشمال الغربي من إيطاليا، وبنوا حصن فراكسينيت في موقع غارد فرينة الحالية، ومنه انطلقوا إلى مرتفعات جبال الآلب ومنها إلى سهول سويسرا وفرنسا والبيمونت من إيطاليا، وفي جبال الآلب سيطروا على ممر سان برنار الشهير حيث فرضوا الأتاوة على الحجاج الأوروبيين في روما(٥).

وكانت التجارة والسفارة من الوسائل المهة في عمليات انتقال التأثيرات الحضارية إلى الغرب الأوروبي، ففي منطقة اللورين أي شرق فرنسا وغرب ألمانيا، قامت علاقات تجارية بينها وبين الأندلس، ولا سيما تجارة العبيد، الذين كانوا ينقلون من هذه المناطق إلى جنوب الأندلس، حيث يتم تصديرهم إلى جهات أخرى. كما حدثت لقاءات بين رجال الفكر من البلدين خلال بعض السفارات كتلك التي تمت بين امبراطور ألمانيا أوتون الكبير والخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، فقد التقى ربيع بن زيد أحد رجال الفكر المستعربين في البلاط الأندلسي، بمؤرخ العصر الوسيط المشهور لوتبراند وتشجيعه على وضع مؤلفه في تاريخ الفترة. كما أن سفير أوتون الكبير للأندلس وهو جون راهب مدينة غورز كان رجل فكر، واتصل خلال إقامته بالأندلس التي استمرت نحو ثلاث

٤ ـ دام هذا العصر من سنة ٣١٦ ـ ٤٤٢٢ هـ.

٥ ـ احمد بدر ـ تاريخ الأندلس ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ عبد اللطيف ارناؤوط مجلة التراث العربي ـ العدد ٥٢ تشرين اول ١٩٩٣ اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنوات برجال فكر أندلسيين كبار. وأدت هذه العلاقات الطيبة إلى زرع وبث بذور الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، ونشرها فيما بعد في مناطق أخرى متفرقة من ألمانيا وفرنسا وانكلترا(٦).

وانتقلت المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية من الأندلس إلى أوروبا عن طريق آخر تمثل بطلاب العلم، الذين وفدوا إلى الأندلس بعد أن طارت شهرتها في هذا الميدان. وقد ساعدهم وسهل عليهم تلقي العلوم العربية أنهم كانوا يأخذون عن المستعربين الأندلسيين، الذين كانوا عل معرفة مكينة بالعربية واللاتينية لغة الكنيسة والثقافة. ومن الأمثلة الحية على ذلك الراهب جيربرت دي أورياك، الذي اعتلى فيما بعد كرسي البابوية باسم سلفستر الثاني، الذي زار منطقة قطالونيا في اسبانيا في الفترة بين ٩٦٧ - ٩٧٠ م واستمر التردد على هذه المنطقة تقليداً معروفاً خلال عدد من القرون. كما نجد في هذه الفترة بيدرو الفونسو القطالوني، الذي انتقل فيما بعد إلى انكلترا حيث عاش في ظل الملك هنري الأول، وألف هناك كتاب الفلك سنة ١١١٥ م بعد ما ذاع صيته كأحد ناشري العلم في أوروبا(٧).

وهناك وسيلة أخرى لا بأس من ذكرها هنا لأهميتها البالغة في عملية انتقال المؤثرات الحضارية إلى أوروبا، وتتجسد هذه الوسيلة في الكتب العلمية ومدارس الترجمة. كان من هذه المدارس مدرسة الترجمة في مدينة طليطلة، التي أسهمت بنقل الثقافة العربية الإسلامية بكل ما احتوته من عناصر معارف اليونان القديمة إلى أوروبا، هذا بالإضافة إلى ما كان قد أبدعه العرب في حقول العلم والمعارف، وما أبدعه علماء الشرق الأقصى. وقد اشتهر على صعيد نشاط هذه المدرسة غونديسالفو أحد كبار اللاهوتيين في كاتدرائية طليطلة في الفترة بين ١١٣٠ - ١١٧٠ م الذي قام بنقل كثير من المعارف الفلسفية إلى أوروبا(٨).

وكانت الترجمة من العربية إلى اللاتينية عن طريق الواسطة، بحيث تجري ترجمة شفوية إلى الإسبانية الدارجة، ومن ثم يترجم الكلام إلى اللاتينية ويدوّن. وبهذه الطريقة قام خوان الإشبيلي، الذي تخصص بترجمة الكتب الفلكية العربية، وأضاف ترجمة لكتاب الخوارزمي في الحساب، المؤلف في المشرق خلال عهد المأمون العباسي (٨١٣ - ٨٣٣ م) وهو الكتاب الذي نشر بين العرب الأرقام الهندية ونظام التعداد الهندي. وبفضل هذا العمل انتقلت معارف جمة إلى أوروبا.

٦ - D. M. Dunlop. Arabic science in the west. P. 25 - 28 A. A E L - Hajji Andalusian Diplomatic Relation with western europe. P P. 210 - 227.

٧ . أحمد بدر . تاريخ الأندلس ص ٤٠٣ .

٨ . محمد السويسي . العلوم العربية بالأندلس . بحث منشور ضمن كتاب . الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ طبعة دمشق ١٩٩٠ ص ٥٢٢ وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبرز في هذا الميدان اسم الفيلسوف الانكليزي أديلارد ي باث، وكان رحالة نشيطاً زار سورية عام ١١١٥ م وفرنسا وصقلية في العام التالي، وأقام في الأندلس بين عامي ١١٢٦ - ١١٢٩ م ترجم خلالها الجداول الفلكية للخوارزمي مع إضافات مسلمة المجريطي (١٠٠٧ - ١١٠٨ م) عليها. وفي عام ١١٤٢ م برز في اسبانيا رئيس ديرية كلوني أكبر ديرية في أوروبا الغربية، وهو بطرس الممجد الذي حج إلى ضريح شانت ياقب(٩) ومثل بعدها في بلاط الفونسو السابع، وعهد بترجمة القرآن الكريم إلى كل من بطرس الطليطلي وهيرمان الدالماسي والانكليزي روبرتودي شستر. كما اشتهر اللومباردي جيراردي كريمونا، الذي توجه إلى طليطلة، وتردد على العلماء فيها، وانصب اهتمامه على معرفة مؤلفات بطليمو الفكلية وترجمتها(١٠).

وقد امتدت الفترة الزمنية لمرحلة الترجمة إلى أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، وتميزت باهتمامها الكبير بترجمة المؤلفات العربية، التي تسير على الخط الارسطاطاليسي، أما المترجمون فظلوا خليطاً من الجنسيات الأوروبية مثال ذلك الانكليزي ميخائيل الاسكتلندي، وميخائيل سكوت الذي ترجم عام ١٢٧١ م كتاب البطروجي، الذي يتبع خط أرسطو الفكري، وفيه شكك المؤلف بنظرية بطليموس في الفلك، التي كانت معتمدة خلال العصور الوسطى وربما اعتمدت على أفكاره العالم المشهور كوبرنيق الذي أجهز على النظرية وقد طبعت هذه الترجمة في بولونا عام ١٤٩٥ م. كما أن المترجم ذاته ترجم كتباً أخرى لارسطو، مع شروح وتعليقات عليها لابن سينا(١١).

وقام الراهب الإسباني ماركوس بترجمة كتب جالينوس إلى اللاتينية، وترجمت تحت إشراف الأسقف خيمينيث دي رادا عدة كتب عربية إسلامية، كان في مقدمتها القرآن الكريم، إضافة إلى بعض المؤلفات الدينية الأخرى.

وتوجد مجموعة من التراجمة من غير الممكن التحدث عنهم في هذا المكان، لكثرة ما ترجموا ونقلوا من معارف عربية إلى اللغة اللاتينية. وما يهمنا أكثر أن نقف على الأثر الذي خلفته حركة الترجمة هذه في المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، ولعل خير من أفصح عن ذلك الفيلسوف رينان في كتابه الذي مضى على تأليفه أكثر من قرن حول (ابن رشد والرشدية) عندما قال، إن إدخال النصوص العربية في دراسات الغرب الأوربي يقسم تاريخ الفلسفة والعلم إلى فترتين

٩ ـ معنى العبارة هو ضريح القديس يعقوب الموجود حالياً في البرتغال، وهو ابعد موقع وصله العرب في الاندلس على عهد محمد بن ابي عامر خلال القرن الرابع الهجري.

١٠ - H. Haskins. Studies in the history of medieval science. P. 18.

١١ ـ احمد بدر ـ تاريخ الأندلس ص ٤١٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مختلفتين بصورة كلية، في الأولى، كان على النفس الإنسانية أن ترضي تطلعاتها للمعرفة بتلك البقايا الفقيرة المحفوظة في المدارس الرومانية لعصر الانحطاط، أما في الفترة الثانية، فقد استفاد الغرب من المؤلفات الأصلية لليونان والعرب(١٢).

وبالجملة فقد أدى اختلاط الغربيين بالعرب المسلمين عبر كل الوسائل والطرق التي ذكرت حتى الآن إلى اقتباسهم شيئاً كثيراً من الحضارة العربية الإسلامية على مختلف الصعد والميادين، ولا سيما في ميدان العلوم الرياضية والفلكية والطبية والصيدلانية والفلسفية والجغرافية، مما جعل أوروبا تنتقل من مرحلة نومها الطويل عبر قرون طويلة مظلمة، إلى مرحلة أكثر وضوحاً وإشراقاً وتأثيراً في جميع مناحي الحياة العامة بصورة إيجابية(١٣) وهذا ما سيكون محور بحثنا في الصفحات التالية، من أجل أن تتضح الصورة، ويبرز الواقع على حقيقته الخالدة، التي لا يمكن لأحد إنكارها أو إشاحة النظر عنها. ونبدأ بالتأثير الحضاري العربي في مضمار علم الطب والمداواة والصيدلة وصنع الدواء.

ففي ميدان الطب، يمكن أن نذكر بادئ ذي بدء، أن العرب المسلمين في الأندلس والمغرب، استطاعو أن يرفعوا كرامة مهنة الطب من مستوى وضيع جداً إلى مركز رفيع، فقد كان لعلمائهم القدح المعلى في نشر علم الطبابة القديم بعد أن قُبر في أوروبا قروناً طويلة، وكشفوا فيه أموراً كثيرة أحدثوها، وهذبوا مسائله، وحسنوا فصوله. وهم الذين نقحوا التعاليم القديمة، واقتفوا آثارها على أساس منطقي، وأضافوا إليها تجاربهم، وجعلوها ملائمة لأيامهم، وبلغ من رقي ثقافتهم، أن الطبيب العربي المسلم، كان لا بد له - علاوة على معرفته من الإلمام بكل فروع العلوم الأخرى(١٤).

وقد ساعدهم على هذه الأعمال الجليلة، أنهم كما قال عنهم المؤرخ العربي (لكلرك) أنه في ختام القرن الثامن الميلادي، كان كل ما في أيدي العرب من العلوم ترجمة مؤلف في الطب وبضعة كتب في علم الكيمياء، ولكن ما كان القرن التاسع الميلادي يوشك أن ينتهي حتى كان العرب، قد امتلكوا ناصية كل علوم اليونان وثقافة الأقدمين، ونبغ فيهم عدد جم من المؤلفين. ويقول بعضهم الآخر، أن المدنية الأوروبية، بل في الحقيقة أن المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين

١٢ - Renan Averriues ot l'averroisme. Paris 1852 - PP. 158 - 159.

١٣ - الكسندر ستيبتشفيتش - تاريخ الكتاب - ترجمة محمد الأرناؤوط طبعة عالم المعرفة الكويت ١٩٩٣ ص ٢٤٦ - عمر الاسكندري وسليم حسن - تاريخ اوروبا الحديثة وآثار حضارتها مطبعة المعارف القاهرة ١٩١٧ ص ٥ - ٦ .

١٤ - زكي بك علي - الطب العربي وتاثيره في مدنية اوروبا - بحث منشور في المجلة الطبية العلمية العدد الحادي عشر مطبعة السبيل بيروت ١٩٣٩ ص ٤٢٤ واظر تاريخ الكتاب ص ٢٤٦ .